بغداد بين سقوطين !!

مقدمة لابد منها!

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله..

أما بعد..

فإن الله عز وجل من رحمته بخلقه أنه ثبَّت لهم في الأرض سننًا لا تتغير ولا تتبدل؛ بها تستقيم حياة الناس، وعليها يعتمد الخلق في حركاتهم وسكناتهم.. ولو كان لكل زمان سُنة، أو لكل مكان سُنة؛ لاضطربت حياة الناس، ولضاعت كل الخبرات السابقة.. لكن -بفضل الله- الخبرات السابقة لا تضيع؛ ما حدث معك بالأمس يتكرر اليوم، وما يحدث معك اليوم سيتكرر غدًا، وهكذا إلى يوم القيامة.

ومن هنا جاءت أهمية دراسة التاريخ؛ فالأحداث السابقة تتكرر دائمًا، وبصورة تكاد تكون متطابقة؛ فليس هناك جديد على الأرض.. فإذا درسنا التاريخ وعرفنا أن حدثًا ما قد مر قبل ذلك, وكانت فيه نفس الظروف والملابسات التي تواكب حدثًا نعيشه الآن؛ فإننا نستطيع أن نستنتج النتائج.

دراسة التاريخ بهذه الطريقة تجعل التاريخ حيًا ينبض؛ فأنت تقرأ لتتفاعل, لا لمجرد التسلية أو الدراسة الأكاديمية البحتة.. دراسة التاريخ بهذه الصورة لها هدف واضح؛ هو البحث عن "**العبرة**".. وهذا ما ذكره الله Y في كتابه عندما قال: **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ)** - سورة يوسف, آية ١١١.

وبين أيدينا الآن حدث من الأحداث المهمة جدًا في تاريخ المسلمين، بل وفي تاريخ الأرض بصفة عامة؛ وهو حدث ظهور قوة جديدة رهيبة على سطح الأرض في القرن السابع الهجري.. وقد أدى ظهور هذه القوة إلى تغييرات هائلة في الدنيا بصفة عامة, وفي أرض الإسلام بصفة خاصة. تلك القوة هي "**دولة التتار**"!!..

وليس الغرض من هذه الصفحات هو الدخول في كل تفصيل، والبحث عن كل موقف؛ فهذا يطول شرحه، ولكن فقط سنمر على الأحداث في عجالة؛ نبحث فيها عن مواطن العبرة.. وعن أوجه الشبه بينها وبين زماننا المعاصر.. وسنحلل بسرعة أسباب الهزيمة وأسباب النصر.. ومن أراد أن يستزيد فليعد إلى المراجع الكثيرة العظيمة التي تذخر بها المكتبة الإسلامية..

ظهور التتار

ظهرت قوة التتار في أوائل القرن السابع الهجري. وحتى نفهم الظروف التي نشأت فيها هذه القوة؛ لابد من إلقاء نظرة على واقع الأرض في ذلك الزمان.. **الناظر إلى الأرض في هذا الوقت يجد أن القوى الموجودة في ذلك الزمان كانت عبارة عن قوتين رئيستين:**

القوة الأولى هي قوة أمة الإسلام: المساحات الإسلامية في هذا الوقت كانت تقترب من نصف مساحات الأراضي المعمورة.. كانت حدود البلاد الإسلامية تبدأ من غرب الصين وتمتد عبر آسيا وإفريقيا لتصل إلى غرب أوروبا؛ حيث بلاد الأندلس.. وهي مساحة شاسعة للغاية.. لكن للأسف الشديد فإن وضع العالم الإسلامي كان مؤسفًا جدًا؛ فمع المساحات الواسعة من الأرض، ومع الأعداد الهائلة من البشر، ومع الإمكانيات العظيمة من المال والمواد والسلاح والعلوم، إلا أنه كانت هناك فرقة شديدة في العالم الإسلامي، وتدهور كبير في الحالة السياسية لمعظم الأقطار الإسلامية. والغريب أن هذا الوضع المؤسف كان بعد سنوات قليلة من

أواخر القرن السادس الهجري؛ حيث كانت أمة الإسلام قوية منتصرة متوحّدة، ولكن هذه سُنة ماضية.. **(وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)**- سورة آل عمران, آية ١٤٠. **ولنلق نظرة على العالم الإسلامي في أوائل القرن السابع الهجري..**

١. الخلافة العباسية: كانت قد ضعفت جدًا حتى أصبحت لا تسيطر حقيقة إلا على العراق، وتتخذ من بغداد عاصمة لها منذ سنة ١٣٢ هجرية.. وحول العراق عشرات من الإمارات المستقلة استقلالاً حقيقيًا عن الخلافة، وإن كانت لا تعلن نفسها كخلافة منافسة للخلافة العباسية.. فتستطيع أن تقول إن الخلافة العباسية كانت **"صورة خلافة"** وليست خلافة حقيقية.

وكان يتعاقب على حُكم المسلمين في العراق خلفاء من بني العباس.. حملوا الاسم العظيم الجليل؛ **"الخليفة"**، ولكنهم ما اتصفوا أبدًا بهذا الاسم، ولا حتى رغبوا في الاتصاف به؛ فلم يكن لهم من همَّ إلا جمع المال، وتوطيد أركان السلطان في هذه الرقعة المحدودة من الأرض، ولم ينظروا نظرة صحيحة أبدًا إلى وظيفتهم كحكام، ولم يدركوا أن من مسئولية الحاكم أن يوفر الأمان لدولته، ويقوي من جيشها، ويرفع مستوى المعيشة لأفراد شعبه، ويحكم في المظالم، ويرد الحقوق لأهلها، ويجير المظلومين، ويعاقب الظالمين، ويوحد الصفوف والقلوب، ويقيم حق الله Y على العباد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدافع عن كل ما يتعلق بالإسلام.. لم يدركوا هذه المهام الجليلة للحاكم المسلم؛ إنما كان كل همهم هو الاستمرار أطول فترة ممكنة في كرسي الحكم، وتوريث الحكم لأبنائهم، وتمكين أفراد عائلتهم من رقاب الناس، وكذلك كانوا يحرصون على جمع الأموال الكثيرة، والتحف النادرة، ويحرصون على إقامة الحفلات الساهرة، وسماع الأغاني والموسيقى واللهو والطرب.

حياة الحكام كانت حياة لا تصلح أن تكون لفرد من عوام المسلمين، فضلاً عن أن تكون لحاكم أمة الإسلام.. لقد ضاعت هيبة الخلافة، وتضاءلت طموحات الخليفة!.. كانت هذه هي "الخلافة" العباسية في أوائل القرن السابع الهجري.

٢- مصر والشام والحجاز واليمن: كانت هذه الأقاليم في أوائل القرن السابع الهجري في أيدي الأيوبيين أحفاد صلاح الدين الأيوبي، ولكنهم للأسف لم يكونوا على شاكلة هذا الرجل العظيم؛ بل تنازعوا الحكم سويًا، وقسموا الدولة الأيوبية الموحَّدة إلى ممالك صغيرة متناحرة؛ فاستقلت الشام عن مصر، واستقلت اليمن كذلك.. بل وقسمت الشام إلى إمارات متعددة متحاربة!!؛ فانفصلت حمص عن حلب ودمشق، وكذلك انفصلت فلسطين. وما لبثت الأراضي التي حررها صلاح الدين من أيدي الصليبيين أن تقع من جديد في أيديهم بعد هذه الفرقة، ولا حول لا قوة إلا بالله..

٣- بلاد المغرب والأندلس: كانت تحت إمرة "دولة الموحدين".. وقد كانت فيما سبق دولة قوية مترامية الأطراف تحكم من ليبيا شرقًا إلى المغرب غربًا، ومن الأندلس شمالاً إلى وسط إفريقيا جنوبًا. ومع ذلك؛ ففي أوائل القرن السابع الهجري كانت هذه الدولة قد بدأت في الاحتضار، وبالذات بعد موقعة العقاب الشهيرة سنة ٦٠٩ هجرية، والتي كانت بمثابة القاضية على هذه الدولة الضخمة.

٤- خوارزم: كانت الدولة الخوارزمية دولة مترامية الأطراف، وكانت تضم معظم البلاد الإسلامية في قارة آسيا.. تمتد حدودها من غرب الصين شرقًا إلى أجزاء كبيرة من إيران غربًا، وكانت على خلاف كبير مع الخلافة العباسية، وكانت بينهما مكائد ومؤامرات متعددة، وحدثت في فترتها حروب كثيرة مع السلاجقة والغوريين والعباسيين وغيرهم من المسلمين.

٥- الهند: كانت تحت سلطان الغوريين في ذلك الوقت, وكانت الحروب بينها وبين دولة خوارزم متكررة.

٦- فارس: وهي إيران الحالية؛ وكانت أجزاء منها تحت سلطان الخوارزميين, وكانت الأجزاء الغربية منها والملاصقة للخلافة العباسية تحت سيطرة طائفة الإسماعيلية؛ وهي من أخبث طوائف الشيعة، ولها مخالفات كثيرة في العقيدة جعلت كثيرًا من العلماء يخرجونهم من الإسلام تمامًا, وكانوا أهل حرب، وكانوا على خلاف دائم مع الخلافة العباسية.

وبعد...

فهذه نظرة على الأمة الإسلامية في ذلك الوقت.. ونلاحظ أنه قد انتشرت فيها الفتن والمؤامرات، وتعددت فيها الحروب بين المسلمين وإخوانهم في الدين، وكثرت فيها المعاصي والذنوب، وعم الترف والركون إلى الدنيا.. وهانت الكبائر على قلوب الناس؛ حتى كثر سماع أن هذا ظلم هذا, وأن هذا قتل هذا، وأن هذا سفك دم هذا. يقال هذا الكلام بدم بارد، وكأن الأرواح التي تزهق ليست بأرواح بشر!، وقد عُلم على وجه اليقين أن من كان هذا حاله فلابد من استبداله!!..

وأصبح العالم الإسلامي ينتظر كارثة تقضي على كل الضعفاء في كل هذه الأقطار؛ لكي يأتي بعد ذلك جيل جديد من المسلمين يغير الوضع، ويعيد للإسلام هيبته، وللخلافة قوتها ومجدها..

القوة الثانية في الأرض في أوائل القرن السابع الهجري كانت قوة الصليبيين: وكان المركز الرئيسي لهم في غرب أوروبا؛ حيث لهم هناك أكثر من معقل.. وقد انشغلوا بحروب مستمرة مع المسلمين؛ فكان نصارى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا يقومون بالحملات الصليبية المتتالية على بلاد الشام ومصر، وكان نصارى إسبانيا والبرتغال، وأيضًا فرنسا في حروب مستمرة مع المسلمين في الأندلس.

وشاء الله سبحانه تعالى أن تكون نهاية القرن السادس الهجري سعيدة جدًا على المسلمين, وتعيسة جدًا على الصليبيين؛ فقد أذن الله (**عز وجل**) في نهاية القرن السادس الهجري بانتصارين جليلين لأمة الإسلام على الصليبيين؛ فقد انتصر البطل العظيم "**صلاح الدين الأيوبي**" (رحمه الله) على الصليبيين في موقعة "**حطين**"؛ وذلك في عام **٥٨٣** هجرية. وبعدها بثمانية سنوات فقط انتصر البطل الإسلامي الجليل "**المنصور الموحدي**" (رحمه الله) زعيم دولة الموحدين على نصارى الأندلس في موقعة "**الأرك**" الخالدة في سنة **٥٩١** هجرية.. وبالرغم من هذين الانتصارين العظيمين إلا أن المسلمين في أوائل القرن السابع الهجري كانوا في ضعف شديد؛ وذلك بعد أن تفكك شمل الأيوبيين بوفاة صلاح الدين الأيوبي، وكذلك انفرط عقد الموحدين بعد وفاة المنصور الموحدي، غير أن الصليبيين كانوا كذلك في ضعف شديد لم يمكنهم من السيطرة على البلاد المسلمة..

كان هذا هو وضع العالم في أوائل القرن السابع الهجري..

وبينما كان هذا هو حال الأرض في ذلك الوقت ظهرت قوة جديدة ناشئة قلبت الموازين، وغيرت من خريطة العالم، وفرضت نفسها كقوة ثالثة في الأرض.. أو تستطيع أن تقول إنها كانت القوة الأولى في الأرض في النصف الأول من القرن السابع الهجري.. هذه القوة هي قوة دولة التتار أو المغول!!..

من هم التتار؟

ظهرت دولة التتار في عام ٦٠٣ هجرية تقريبًا، وكان ظهورها الأول في "منغوليا" في شمال الصين، وكان أول زعمائها هو "جنكيز خان".. و"**جنكيز خان**" كلمة تعني قاهر العالم أو ملك ملوك العالم أو القوي حسب الترجمات المختلفة للغة المنغولية، واسمه الأصلي "**تيموجين**"، وكان رجلاً سفاكًا للدماء، ولكنه كان قائدًا عسكريًا شديد البأس، وكانت له القدرة على تجميع الناس حوله.. وبدأ في التوسع في المناطق المحيطة به، وسرعان ما اتسعت مملكته حتى بلغت حدودها من كوريا شرقًا إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غربًا، ومن سهول سيبريا شمالاً إلى بحر الصين جنوبًا.

وكان للتتار ديانة عجيبة هي خليط من أديان مختلفة؛ فقد جمع "جنكيز خان" بعض الشرائع من الإسلام والمسيحية والبوذية، وأضاف من عنده شرائع أخرى، وأخرج في النهاية كتابًا جعله كالدستور للتتار، وسماه **"الياسة" أو"الياسق"**..

وكانت حروب التتار تتميز بأشياء خاصة جدًا مثل:

١. سرعة انتشار رهيبة..

٢. نظام محكم وترتيب عظيم وقيادة عسكرية بارعة..

٣. أعداد هائلة من البشر..

٤. تحمل ظروف قاسية..

٥- أنهم بلا قلب!!؛ فكانت حروبهم حروب تخريب بشعة.. وكان من السهل جدًا أن ترى في تاريخهم أنهم دخلوا مدينة كذا أوكذا فدمروا كل المدينة، وقتلوا سكانها جميعًا؛ لا يفرقون في ذلك بين رجل وامرأة، ولا بين رضيع وشاب، ولا بين مدني ومحارب!!.. وكما يقول الموفق عبد اللطيف في خبر التتار: **"وكان قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال"**..

٦- رفض قبول الآخر، والرغبة في تطبيق مبدأ **"القطب الواحد !"**؛ فليس هناك طرح للتعامل مع دول أخرى محيطة.. والغريب أنهم كانوا يتظاهرون دائمًا بأنهم ما جاءوا إلا ليقيموا الدين، ولينشروا العدل، وليخلصوا البلاد من الظالمين!!..

٧- أنهم لا عهد لهم؛ فلا أيسر عندهم من نقض العهود وإخلاف المواثيق، لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة؛ كانت هذه صفة أصيلة لازمة لهم لم يتخلوا عنها في أي مرحلة من مراحل دولتهم منذ قيامها وإلى أن سقطت.

هذه هي السمات التي اتصف بها جيش التتار، وهي صفات تتكرر كثيرًا في كل جيش لم يضع في حسبانه قوانين السماء وشريعة الله عز وجل؛ فالذي يملك القوة ويفتقر إلى الدين لابد أن تكون هذه صورته؛ فكانت حروب المرتدين – على سبيل المثال– قريبًا من هذا، كذلك حروب الفرس والرومان، وكذلك كانت حروب الصليبيين في الشام ومصر والأندلس، ثم سار على طريقتهم بعد ذلك أتباعهم من المستعمرين الإسبان والبرتغال والإنجليز والفرنسيين والطليان والروس واليهود.. ثم الأمريكان!!..

ومن سُنة الله Y أن يحدث الصراع بين القوى المختلفة.. ومن سُنة الله Y كذلك أن الباطل –مهما تعددت صوره– لابد أن يجتمع لحرب الحق؛ لذلك فإننا يجب أن نتوقع تعاونًا بين التتار والصليبيين –على اختلاف توجهاتهم وسياستهم ونظرياتهم– لحرب المسلمين.. وهذا ما حدث بالضبط!.. فقد أرسل الصليبيون وفدًا رفيع المستوى من أوروبا إلى التتار (مسافة تزيد على اثني عشر ألف كيلو ذهابًا فقط!!) يحفزونهم لغزو بلاد المسلمين وإسقاط الخلافة العباسية, واقتحام "بغداد" درة العالم الإسلامي في ذلك الوقت.. وعظَّموا لهم جدًا من شأن الخلافة الإسلامية، وذكروا لهم أنهم (أي الصليبيين) سيكونون عونًا لهم في بلاد المسلمين.. وقد حدث ما توقعه الصليبيون، وسال لعاب التتار لأملاك الخلافة العباسية, وقرروا فعلاً غزو هذه البلاد الواسعة الغنية بثرواتها والمليئة بالخيرات. هذا، مع عدم توافق التتار مع الصليبيين في أمور كثيرة، بل ستدور بينهم بعد ذلك حروب كثيرة، ولكنهم إذا واجهوا أمة الإسلام؛ فإنهم يوحِّدون صفوفهم لحرب الإسلام والمسلمين..

وهذا متكرر جدًا في التاريخ؛ فقد تعاون قبل ذلك اليهود مع المشركين لحرب الرسول ρ مع الاختلاف الكبير في عقائد اليهود عن عقائد المشركين، وتعاوَن الفرس مع الروم في حرب المسلمين مع شدة الكراهية بين الدولتين الكبيرتين فارس والروم، ومع الثارات القديمة والحروب الطويلة، وكذلك تعاون الإنجليز مع اليهود لإسقاط الخلافة العثمانية، واحتلال فلسطين وزرع إسرائيل في داخل هذه الأرض المباركة مع شدة العداء بين اليهود والنصارى، ويتعاون الروس مع الأمريكان الآن للقضاء على ما يسمونه **الإرهاب الإسلامي**؛ فتسهل روسيا لأمريكا حروبها في أفغانستان والعراق وفلسطين.. على

أن تسهل أمريكا لروسيا حربها في الشيشان.. والضحية في الحالتين من المسلمين..

إذن اتحاد أهل الباطل في حربهم ضد المسلمين أمر متكرر، وسُنة ماضية.. ولا يستقيم أن يتعامل المسلمون بالمبدأ القائل: **"عدو عدوي صديقي"**، بل لابد أن يعرف المسلمون أعداءهم، ولابد أن يعرفوا أيضًا أن عدو عدوهم قد يكون أيضًا عدوهم.

والمهم في كل ذلك أن التتار بدأوا يفكرون جديًا في غزو بلاد المسلمين، وبدأوا يخططون لإسقاط الخلافة العباسية، ودخول **"بغداد"** عاصمة الخلافة الإسلامية..

فكر "جنكيز خان" في أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق هو التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان (تمامًا كما تمركز الأمريكيون في نفس المنطقة قبل غزو العراق)؛ لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش التترية في منطقة متوسطة بين العراق والصين، كما أن هذه المنطقة غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية، وكانت من حواضر الإسلام المشهورة وكنوزها كثيرة.. هذا بالإضافة إلى أنه لا يستطيع تكتيكيًا أن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة قد تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد.. كل هذه العوامل جعلت "جنكيز خان" يفكر في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تعرف **"بالدولة الخوارزمية"**.. وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل أفغانستان وأوزباكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران..

وكان "جنكيز خان" في شبه اتفاق مع ملك خوارزم "محمد بن خوارزم شاه" على حسن الجوار, ومع ذلك فجنكيز خان لم يكن من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون الإسلامية.. وهذا الكلام وإن كان منطقيًا ومقبولاً في كل بقاع الأرض؛ إلا أنه بالطبع لم يكن مقنعًا لجنكيز خان، أو قل إن "جنكيز خان" لم يكن "يرغب" في الاقتناع؛ فليس اتفاقياتهم؛ لكن حتى تكون الحرب مقنِعة لكلا الطرفين؛ لابد من وجود سبب يدعو إلى الحرب, ويدعو إلى ادعاء أن الاتفاقيات لم تعد سارية، ولو كان سببًا وهميًا.. وسبحان الله لقد ساقت الظروف سببًا إلى جنكيز خان!!.. والسبب الذي جاءه قد يكون مبكرًا عن إعداده ورغبته ولكن لا مانع من استغلاله..

لقد ذهبت مجموعة من تجار المغول إلى مدينة **"أوترار"** الإسلامية في مملكة خوارزم شاه.. ولما رآهم حاكم المدينة المسلم، أمسك بهم وقتلهم!.. أما لماذا قتلهم فقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الحادثة؛ فمنهم من يقول إن هؤلاء ما كانوا إلا جواسيس من التتار، ومنهم من يقول إن هذا كان ردًا على عمليات للسلب والنهب قام بها التتار في بلاد ما وراء النهر؛ وهي بلاد خوارزمية.. ومنهم من يقول إن هذا كان فعلاً متعمدًا بقصد استثارة التتار للحرب، ومنهم من يقول إنما أرسل "جنكيز خان" بعضًا من رجاله إلى أرض المسلمين ليقتلوا تجار التتار هناك؛ حتى يكون ذلك سببًا في غزو البلاد المسلمة.. ومنهم من قال إن حاكم **"أوترار"** طمع في أموال التجار فقتلهم لأجلها.. وكل هذه احتمالات واردة، لكن المهم في النهاية أن التجار أو الجواسيس قد قتلوا، ووصل النبأ إلى "جنكيز خان"؛ فأرسل إلى "محمد بن خوارزم شاه" يطلب منه تسليم القتلة إليه حتى يحاكمهم بنفسه **(كطلب أمريكا من أفغانستان تسليم أسامة بن لادن)**، ولكن "محمد بن خوارزم شاه" اعتبر ذلك تعديًا على سيادة البلاد المسلمة؛ فهو لا يسلِّم مجرمًا مسلمًا ليحاكم في بلدة أخرى بشريعة أخرى، إنما قال إنهم سيحاكمون في بلاده؛ فإن ثبت بعد التحقيق أنهم مخطئون عاقبهم في بلاده بالقانون السائد فيها وهو الشريعة

المجال مجال الحُجة والبرهان والدليل؛ إنما خطط "جنكيز خان" لغزو بلاد المسلمين خطط مسبقة، ولن يعطلها شيء، وإنما

كان يبحث فقط عن علة مناسبة، أو شبه مناسبة، وقد وجد في هذا الأمر العلة التي كان يريدها؛ ولذلك بدأ الإعصار التتري الرهيب على بلاد المسلمين!!..

الاجتياح التتري لبلاد المسلمين:

وجاء "جنكيز خان" بجيشه الكبير لغزو خوارزم، وخرج له "محمد بن خوارزم شاه" بجيشه أيضًا.. والتقى الفريقان في موقعة شنيعة استمرت أربعة أيام متصلة؛ وذلك شرق نهر سيحون (وهو يعرف الآن بنهر "سرداريا"، ويقع في دولة كازاخستان المسلمة)، وقُتل من الفريقين خلق كثير.. لقد استشهد من المسلمين في هذه الموقعة عشرون ألفًا، ومات من التتار أضعاف ذلك، ثم تحاجز الفريقان، وانسحب "محمد بن خوارزم شاه" بجيشه؛ لأنه وجد أن أعداد التتار هائلة، وذهب ليحصِّن مدنه الكبرى في مملكته الواسعة. وكان هذا اللقاء الدامي في عام **٦١٦** هجرية.. انشغل "محمد بن خوارزم شاه" في تجميع الجيوش من أطراف دولته، ولكن لا ننسى أنه كان منفصلاً، بل معاديًا للخلافة العباسية في العراق، وأيضًا لغيرها من الممالك الإسلامية؛ فلم يكن على وفاق مع الأتراك ولا مع السلاجقة ولا مع الغوريين في الهند. وهكذا كانت مملكة خوارزم مملكة منعزلة عن بقية العالم الإسلامي، ووقفت وحيدة في مواجهة الغزو التتري المهول. وهذه المملكة -وإن كانت قد ثبتت في أول اللقاءات- فإنها ولا شك لن تصمد بمفردها أمام الضربات التترية المتوالية..وفي رأيي، أنه مع قوة التتار وبأسهم وأعدادهم إلا أن سبب المأساة الإسلامية بعد ذلك لن يكون بسبب هذه القوة؛ وإنما سيكون بسبب الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين.. وصدق الله العظيم إذ يقول: **(وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)** - سورة الأنفال, آية ٤٦. فالفشل جعله الله (عز وجل) قرينًا للتنازع، والمسلمون كانوا في نزاع مستمر.. بل إنه في بعض فترات الهدنة في الحروب مع التتار -كما سنرى- كان المسلمون يغيرون على بعضهم البعض، ويأسرون بعضهم البعض، ويقتلون بعضهم البعض!!.. وقد عُلم يقينًا أن من كانت هذه صفتهم؛ فلا يُكتب لهم النصر أبدًا.

ماذا فعل "جنكيز خان" بعد ذلك ؟

لقد جهز "جنكيز خان" جيشه من جديد، وأسرع إلى اختراق كل إقليم كازاخستان الكبير، ووصل في تقدمه إلى مدينة "بخارى" المسلمة (في دولة أوزبكستان الآن)؛ وهي بلدة الإمام الجليل "البخاري" رحمه الله. وحاصر "جنكيز خان" البلدة المسلمة في سنة **٦١٦** هجرية، ثم طلب من أهلها التسليم على أن يعطيهم الأمان، ووافق الفريق الأعظم من أهل بخارى، وقرروا فتح أبواب المدينة والاعتماد على أمان التتار!؛ لكن الذي يعتمد على وعود عدوه واهم، وبالذات إن كان لا يملك قوة الردع. وفتحت المدينة المسلمة أبوابها للتتار، ودخل "جنكيز خان" إلى المدينة الكبيرة فسأل أهلها عن كنوزها وأموالها وذهبها وفضتها، ثم اصطفى كل ذلك لنفسه، ثم أحلَّ المدينة المسلمة لجنده؛ ففعلوا بها ما لا يتخيله عقل!.. وأترك ابن كثير -رحمه الله- يصور هذا الموقف كما جاء في البداية والنهاية، فيقول : **"فقتلوا من أهلها خلقًا لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا مع النساء الفواحش في حضرة أهليهن!!.. فمن المسلمين من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أُسر فعُذِّب بأنواع العذاب، ثم أشعلت التتار النار في دور بخاري ومدارسها ومساجدها؛ فاحترقت المدينة حتى صارت خاوية على عروشها!!"**. انتهى كلام ابن كثير.. ولا حول لا قوة إلا بالله!..

هلكت المدينة المسلمة!!.. وهلك كل من فيها؛ حتى أولئك الذين كانوا يرفضون التسليم وينادون بالجهاد! لقد هلك الجميع؛ هلك المجاهدون فيها، وكذلك هلك المستسلمون!!..

روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ρ: "يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟" قال: "**نعم، إذا كثر الخبث!**"..

والخبث كان قد كثُر في هذه البلاد؛ فمن الخبث ألا يرفع المسلمون سيوفهم ليدافعوا عن دينهم وأرضهم وعرضهم.. ومن الخبث أن يصدَّق المسلمون بعهود الكافرين لهم.. ومن الخبث أن يُقمع الذين رفعوا راية الجهاد.. ومن الخبث أن يتفرق المسلمون ويتقاتلوا فيما بينهم، ومن الخبث ألا يحتكم المسلمون إلى كتاب ربهم، وإلى سنة نبيهم محمد (صلى الله عليه وسلم)..

هذا كله من الخبث!.. وإذا كثر الخبث، لابد أن تحدث الهلكة!.. وهكذا هلكت "بخارى" في سنة ٦١٦ هجرية، **ثم دخلت سنة ٦١٧ هجرية**.. وإنا لله، وإنا إليه راجعون!..

كانت هذه السنة من أبشع السنوات التي مرت على المسلمين منذ بعثة الرسول ρ.. لقد علا فيها نجم التتار، واجتاحوا البلاد الإسلامية اجتياحًا لم يسبق، وأحدثوا فيها من المجازر والمنكرات ما لم يُسمع به، وما لا يُتخيل أصلاً.. لقد تكررت مأساة بخارى في العديد من المدن الإسلامية.. تكررت في سمرقند وأورجندة ومازندران والري وقزوين وبلخ ونيسابور والطالقان ومرو وكثيرٍ غيرها (**قتل على سبيل المثال من مدينة مرو سبعمائة ألف مسلم ومسلمة**)!!..

وليت شعري!!..

كيف سمع المسلمون في بقاع الأرض المختلفة آنذاك بهذه المجازر ولم يتحركوا؟!

الذي ملك بلادًا شاسعة، وأموالاً لا تعد، ولكن رضي بذلك لكي يفر من الموت!.. وسبحان الله!.. فإن الموت لا يفر منه أحد؛ فما هي إلا أيام، ومات محمد بن خوارزم شاه في هذه الجزيرة وحيدًا طريدًا شريدًا، ولم يجدوا ما يكفنونه به, فكفنوه

كيف وصل إليهم انتهاك كل حُرمة للمسلمين، ولم يتجمعوا لقتال التتار؟!

كيف علموا بضياع الدين، وضياع النفس، وضياع العِرض، وضياع المال، ثم ما زالوا متفرقين!!.. لقد كان كل حاكم من حكام المسلمين يحكم قطرًا صغيرًا، ويرفع عليه علمًا، ويعتقد أنه في أمان ما دامت الحروب لا تدور في قطره المحدود!!.. وكانوا يخدعون أنفسهم بالأمان الوهمي حتى لو كانت الحرب على بُعد أميال منهم؟!

لم يفكر حاكم من حكام المسلمين آنذاك أن الدائرة حتمًا ستدور عليه.. وما حدث في "بخارى" و"سمرقند" وغيرها ما هو إلا مقدمة لأحداث دامية أليمة سيعاني منها كل المسلمين, ولن ينجو منها قريب ولا بعيد..

ورحل محمد بن خوارزم شاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته إلى نيسابور، ولكنه لم يتمكن من جمع الأنصار والجنود؛ فالوقت ضيق، والتتار في إثره، فلما علم بقربهم من نيسابور، ترك المدينة واتجه إلى مدينة مازندران (في إيران حاليًا)؛ فتبعه التتار؛ فترك مازندران إلى مدينة الري (في إيران)، ثم إلى مدينة همذان (في إيران)، والتتار في إثره، ثم عاد إلى مدينة مازندران في فرار مخزٍ فاضح، ثم اتجه إلى مدينة طبرستان (في إيران) على ساحل بحر الخزر (بحر قزوين)؛ حيث وجد سفينة فركبها إلى عمق البحر، وجاء التتار متأخرين فلم يدركوه..

لقد نجحت خطة الزعيم الخوارزمي المسلم!!.. نجحت خطة "**الفرار**!!".. ووصل الزعيم محمد بن خوارزم في فراره إلى جزيرة في بحر قزوين، وهناك رضي بالبقاء فيها في قلعة مهجورة, في فقر شديد وحياة صعبة.. وهو الملك

في فراش كان ينام عليه!!.. (**أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**)- سورة النساء, آية ٧٨..

الإنسان لا يختار ميعاد موته، ولكنه يستطيع أن يختار طريقة موته؛ فالشجاعة لا تقصَّر من الأعمار، والفرار والهروب والجبن لا يطيل من الأعمار.. والذي يعيش مجاهدًا في سبيل الله يموت مجاهدًا في سبيل الله، وإن مات على فراشه..

ثم أين كانت الشعوب المسلمة؟!

لقد شاهدنا أمرًا عجيبًا مخزيًا مشينًا!!..

لقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين.. وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقًا لا يفهم.. ورضوا أن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي التتار..

روى أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ρ: "**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت**"..

لقد تملَّك حبُّ الدنيا في القلوب وكَرِهَ المسلمون الموت في سبيل الله؛ فأصبحوا كالغثاء الذي يحمله السيل، إذا توجه السيل شرقًا شرقوا معه، وإذا توجه السيل غربًا غربوا معه؛ لا رأي ولا هدف ولا طموح، ونزع الله عز وجل مهابة المسلمين من قلوب التتار؛ فما عادوا يكترثون بالأعداد الغفيرة، وألقى في قلوب المسلمين الوهن والضعف والخور؛ حتى كانت أقدام المائة من المسلمين لا تقوى على حملهم إذا واجهوا تترًا واحدًا..

وبذلك سقطت كل المناطق الشرقية والغربية والشمالية من دولة خوارزم المسلمة، ولم يبقَ إلا المناطق الجنوبية منها (وهذه المناطق الجنوبية هي وسط وجنوب أفغانستان وباكستان الآن)، وكانت تحت سيطرة "**جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه**"، وهو ابن الزعيم الخوارزمي محمد بن خوارزم الذي شاهدنا قصة فراره المخزي.. وكان جلال الدين زعيم الجنوب يتخذ من مدينة "غزنة" مقرًا له (في أفغانستان الآن)..

ولما انتهى "جنكيز خان" من أمر الزعيم الرئيسي للبلاد محمد بن خوارزم شاه، بدأ يفكر في غزو وسط أفغانستان وجنوبها لقتال الابن "جلال الدين"؛ فوجه إلى غزنة جيشًا كثيفًا من التتار.. وكان جلال الدين قد جاءته أخبار الاجتياح التتري الرهيب لمناطق الشمال والوسط من الدولة الخوارزمية، وبلغه ما حدث لأبيه، وأصبح هو الآن الزعيم الشرعي للبلاد؛ فبدأ يعد العُدة لقتال التتار، وجمع جيشًا كبيرًا من بلاده، وانضم إليه أحد ملوك الأتراك المسلمين اسمه "**سيف الدين بغراق**"، وكان شجاعًا مقدامًا صاحب رأي في الحروب، وكان معه ثلاثون ألف مقاتل، ثم انضم إليه أيضًا ستون ألفًا من الجنود الخوارزمية الذين فروا من المدن المختلفة في وسط وشمال دولة خوارزم بعد سقوطها، وبذلك بلغ جيش جلال الدين عددًا كبيرًا، ثم خرج جلال الدين بجيشه إلى منطقة بجوار مدينة غزنة تدعى "**بلق**"؛ وهي منطقة وعرة وسط الجبال العظيمة.. وانتظر جيش التتار في هذا المكان الحصين..

جاء جيش التتار ودارت بينه وبين قوات جلال الدين المتحدة معركة من أشرس المواقع في هذه المنطقة.. وقاتل المسلمون قتال المستميت؛ فهذه أطراف المملكة الخوارزمية، ولو حدثت هزيمة فليس بعدها أملاك لها، وكان لحمية المسلمين وصعوبة الطبيعة الصخرية والجبلية للمنطقة، وكثرة أعداد المسلمين، وشجاعة الفرقة التركية بقيادة سيف الدين بغراق، والقيادة الميدانية لجلال الدين؛ كان لكل ذلك أثر واضح في ثبات المسلمين أمام جحافل التتار..

واستمرت الموقعة الرهيبة ثلاثة أيام، ثم أنزل الله (عز وجل) نصره على المسلمين، وانهزم التتار للمرة الأولى في بلاد المسلمين!.. وكثر فيهم القتل، وفر الباقون منهم إلى ملكهم "جنكيز خان" والذي كان يتمركز في "**الطالقان**" في شمال شرق أفغانستان..

وارتفعت معنويات المسلمين جدًا؛ فقد كان وَقَرَ في قلوب الكثيرين -قبل هذه الموقعة- أن التتار لا يُهزَمون، ولكن ها هو اتحاد الجيوش الإسلامية في غزنة يؤتي ثماره.. لقد اتحدت في هذه الموقعة جيوش جلال الدين، مع بقايا جيوش أبيه "محمد بن خوارزم شاه"، مع الفرقة التركية بقيادة سيف الدين بغراق.. واختار المسلمون مكانًا مناسبًا وأخذوا بالأسباب المتاحة؛ فكان النصر..

واطمأن جلال الدين إلى جيشه فأرسل إلى "جنكيز خان" في الطالقان يدعوه إلى قتال جديد، وشعر "جنكيز خان" بالقلق لأول مرة؛ فجهَّز جيشًا أكبر، وأرسله مع أحد أبنائه لقتال المسلمين، وتجهَّز الجيش المسلم، والتقى الجيشان في مدينة **"كابول"** الأفغانية؛ ومدينة كابول مدينة إسلامية حصينة محاطة من كل جهاتها تقريبًا بالجبال؛ فشمالها جبال هندوكوش الشاهقة، وغربها جبال باروبا ميزوس، وجنوبها وشرقها جبال سليمان..

ودارت **موقعة كابول** الكبيرة.. وكان القتال عنيفًا جدًا.. أشد ضراوة من موقعة غزنة.. وثبت المسلمون، وحققوا نصرًا غاليًا على التتار، بل وأنقذوا عشرات الآلاف من الأسرى المسلمين؛ من يد التتار. وفوق ارتفاع المعنويات، وقتل عدد كبير من جنود التتار، وإنقاذ الأسرى المسلمين، فقد أخذ المسلمون غنائم كثيرة نفيسة من جيش التتار، ولكن سبحان الله، بدلاً من أن تكون هذه نعمة على جيش المسلمين؛ أصبحت هذه الغنائم نقمة شديدة وهَلَكَة محققة!!..

روى البخارى ومسلم عن عمرو بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ρ: "..**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فَتَنَافسوها كما تَنَافسوها، وتُهلِكُكم كما أَهلَكتهم**"..

لقد كانت قلوب المسلمين في هذه الحقبة من الزمان مريضة **بمرض الدنيا العضال**، إلا ما رحم الله عز وجل.. لقد انتصروا مرة وثانية؛ لِحُبِّ البقاء، والرغبة في الملك، والخوف من الأسر أو القتل؛ فكانت لهم جولة أو جولتان، لكن ظهرت خبايا النفوس عند كثرة الأموال والغنائم، ووقع المسلمون في الفتنة!!.. لقد اختلف المسلمون على تقسيم الغنيمة!!؛ فقام "سيف الدين بغراق" (أمير الترك) وقام أمير آخر هو **"ملك خان"** (أمير مدينة هِراة) كلٌ يطلب نصيبه في الغنائم؛ فحدث الاختلاف، وارتفعت الأصوات، ثم بعد ذلك ارتفعت السيوف!!.. نعم.. ارتفعت السيوف ليتقاتل المسلمون على تقسيم الغنيمة، وجيوش التتار ما زالت تملأ معظم مدن المسلمين!!، وسقط من المسلمين قتلى على أيدي المسلمين.. وكان ممن سقط أخ لسيف الدين بغراق؛ فغضب سيف الدين بغراق وقرر الانسحاب من جيش جلال الدين، ومعه الثلاثون ألف مقاتل الذين كانوا تحت قيادته.. وحدث ارتباك كبير في جيش المسلمين، وحاول جلال الدين أن يحل المشكلة، وأسرع إلى سيف الدين بغراق يرجوه أن يعود إلى صفّ المسلمين؛ فالمسلمون في حاجة إلى كل جندي وإلى كل طاقة وإلى كل رأي.. ولكن سيف الدين بغراق أصرَّ على الانسحاب، وانكسر جيش المسلمين؛ انكسر معنويًا وانكسر ماديًا!!، ولم يستثمر المسلمون النصر الغالي الذي حققوه في غزنة وكابول.

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ρ: "**إن الدنيا حُلوة خَضِرة، وإنَّ اللهَ مستخلفُكم فيها، فينظرَ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**".. لم يدرك المسلمون في هذه الآونة حقيقة الدنيا؛ وأنها دار استخلاف واختبار وامتحان، وليست دار قرار وبقاء وخلود.. نسى المسلمون امتحان ربهم، ولم يستعدوا له، فسقط المسلمون سقطة هائلة..

وبينما هم كذلك إذ جاء "جنكيز خان" بنفسه على رأس جيوشه ليرى هذا الذي انتصر عليه مرتين، ودبَّ الرعب والهلع في جيش المسلمين؛ فقد قلَّت أعدادهم وتحطَّمت

معنوياتهم، ورأى جلال الدين أن جيشه قد ضعُف جدًا.. فماذا فعل؟! لقد أخذ جيشه وبدأ يتجه جنوبًا للهروب من جيش "جنكيز خان"، أو على الأقل لتجنُّب الحرب في هذه الظروف، ولكن **"جنكيز خان"** كان مصرًّا على اللقاء فأسرع خلف جلال الدين!!.. وجلال الدين يفعل مثلما فعل أبوه من قبل؛ ينتقل من مدينة إلى مدينة متوجهًا إلى الجنوب حتى وصل إلى حدود باكستان الآن فاخترقها، ثم تعمق أكثر حتى اخترق كل باكستان ووصل إلى نهر السند الذي يفصل في ذلك الوقت بين باكستان وبين الهند؛ فأراد أن يعبر بجيشه نهر السند ليفر إلى الهند، مع أن علاقاته مع ملوك الهند المسلمين لم تكن على ما يرام، ولكنه وجدَ ذلك أفضل من لقاء جنكيز خان!!.. ولكن عند نهر السند فوجئ جلال الدين وجيشه بعدم وجود السفن لنقلهم عبر النهر الواسع إلى الناحية الأخرى؛ فطلبوا سفنًا من مكان بعيد، وبينما هم ينتظرون السفن إذ طلع عليهم جيش جنكيز خان!!.. ولم يكن هناك بد من القتال؛ فنهر السند من خلفهم، وجنكيز خان من أمامهم، ودارت موقعة رهيبة بكل معاني الكلمة.. حتى إن المشاهدين لها قالوا إن كل ما مضى من الحروب كان لعبًا بالنسبة إلى هذا القتال.. واستمر اللقاء الدامي ثلاثة أيام متصلة، واستحر القتل في الفريقين، وكان ممن قتل في صفوف المسلمين **الأمير ملك خان**؛ والذي كان قد تصارع من قبل مع سيف الدين بغراق على الغنائم.. وها هو لم يظفر من الدنيا بشيء؛ بل ها هي الدنيا قد قتلته، ولم يتجاوز لحظة موته بدقيقة واحدة.. ولكن شتان بين من يموت وهو ناصر للمسلمين بكل طاقته، ومن يموت وقد تسبب بصراعه في فتنة أدت إلى هزيمة مرة..

وفي اليوم الرابع جاءت بعض السفن؛ فما فكر جلال الدين إلا في نفسه؛ فأخذ خاصته وترك معظم جيشه ليلقى مصيره البائس مع التتار، بل ترك بعضًا من أهله!! وعبر نهر السند إلى بلاد الهند. وتركوا التتار على الناحية الغربية من نهر السند!!..

وانقلب "جنكيز خان" على بلاد المسلمين يصب عليها جام غضبه، ويفعل بها ما اعتاد التتار أن يفعلوه وأكثر. وكانت أشد المدن معاناة هي مدينة غزنة، والتي انتصر عندها المسلمون منذ أيام أو شهور عندما كانوا متحدين؛ دخل "جنكيز خان" المدينة الكبيرة (عاصمة جلال الدين) فقتل كل رجالها بلا استثناء, وسبا كل الحريم بلا استثناء، وأحرق كل الديار بلا استثناء، وتركها –كما يقول ابن الأثير– **خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس!!..**

ويجدر بالذكر أن نشير إلى أنه في جملة الذين أمسك بهم "جنكيز خان" من أهل المدن كان أطفال جلال الدين بن خوارزم.. وقد أمر "جنكيز خان" بذبحهم جميعًا، وهكذا ذاق جلال الدين من نفس المرارة التي ذاقها الملايين من شعبه.. روى البيهقي –بسند صحيح رواته ثقات إلا أنه من مراسيل أبي قلابة رحمه الله– أن رسول الله ρ قال: "**كن كما شئت، كما تدين تدُان**"..

وبذلك يكون التتار قد وصلوا من الصين إلى كازخستان، ثم أوزبكستان، ثم التركمنستان، ثم أفغانستان، ثم إيران، ثم أذربيجان، ثم أرمينية، ثم جورجيا وقد اقتربوا جدًا من العراق.. كل هذا في سنة واحدة؛ في عام ٦١٧ هجرية.. حتى إن ابن الأثير يعلِّق على هذا فيقول: "**وقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يُسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه؛ فهذه طائفة تخرج من حدود الصين، لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية، ويجاورون العراق من ناحية همذان، وتالله لا أشك أن من يجئ بعدنا إذا بعُد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة فإنه سينكرها ويستبعدها، والحق بيده؛ فمتى استبعد ذلك، فلينظر أنا سطرنا، نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه، في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، فقد استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها**"..

واستمر الوضع على هذا الحال في السنوات التالية، وسيطر التتار على معظم الأقطار الإسلامية في هذه المنطقة، ولم يبقَ في أيدي المسلمين إلا النصف الغربي من إقليم فارس

(النصف الغربي من إيران حاليًا)، وكان هذا الجزء ملاصقًا للخلافة العباسية في العراق، وقد تصارع المسلمون على هذا الجزء الضئيل، هذا بالإضافة إلى الخلاف التقليدي الذي بين دولة خوارزم أو "بقايا" دولة خوارزم مع الخلافة العباسية.. وكانت الصراعات بين المسلمين في ذلك الزمن من الأشياء التقليدية التي اعتادها المسلمون!!

وفي سنة **٦٢٢** هجرية خفَّت القبضة التترية نسبيًا على غرب الدولة الخوارزمية (غرب وشمال إيران)، واكتفوا ببعض الحملات المتباعدة، واهتموا بتوطيد ملكهم وتثبيت أقدامهم في شرق الدولة الخوارزمية في مناطق نهري سيحون وجيحون، وفي شمال أفغانستان وشرق إيران..

ولكن حدث أمر جديد في هذه السنة؛ إذ ظهر على مسرح الأحداث فجأة الأمير "**جلال الدين بن محمد بن خوارزم**", والذي كان قد فرَّ قبل ذلك إلى الهند منذ خمس سنوات (في سنة ٦١٧ هجرية)؛ حيث وجد أن التتار قد تركوا منطقة فارس نسبيًا، وأن "جنكيز خان" قد عاد إلى بلاده لمعالجة بعض الأمور هناك, وترك زعيمًا غيره على جيوش التتار، وأن أخاه "**غياث الدين بن محمد بن خوارزم**" قد سيطر على معظم أجزاء فارس بعد أن تقاتل مع مسلم آخر اسمه "**سعد الدين بن دكلا**", واتفقا في النهاية على تقسيم فارس بينهما!!, وكان النصيب الأكبر لغياث الدين..

وجد جلال الدين أن الظروف الآن مواتية للعودة إلى مملكة خوارزم للبحث عن ملكه الضائع، ولكنه للأسف لم يدقق النظرة، ولم يشخِّص المرض الذي أصاب الأمة الإسلامية في ذلك الوقت.. ولم يدرك أن الفُرقة والتشتت والاستهانة بدماء المخالفين من المسلمين كانت من الأسباب الرئيسية لهذه الحالة المخزية التي وصلت إليها أمة الإسلام.. لم يُدرك جلال الدين هذه الأمور، ومن ثم فإنه بدلاً من أن يبذل مجهودًا لتجميع الأطراف المتناحرة والأقاليم المتصارعة، دخل إلى مملكة خوارزم وهو يجهز نفسه ليكون طرفًا جديدًا في الصراع الإسلامي/ الإسلامي!!. فماذا فعل جلال الدين؟!

لقد بدأ يجمع حوله الأنصار له، وذهب إلى "**سعد الدين بن دكلا**" وتحالف معه ضد أخيه غياث الدين!!!!.. وبدأ جلال الدين في غزو إقليم فارس من جنوبه إلى الشمال محاربًا أخاه غياث الدين، حتى وصل إلى غرب إيران، وأصبح قريبًا من الخلافة العباسية. وكما أشرنا؛ فالعلاقات القديمة بين مملكة خوارزم والخلافة العباسية كانت متوترة جدًا، ووجد جلال الدين في نفسه قوة، ووجد في الخلافة ضعفًا؛ فأعلن الحرب على الخلافة العباسية.. (هذا وجيوش التتار قابعة في شرق إيران)، ودخل جلال الدين بجيشه إلى البصرة، وحاصرها لمدة شهرين ثم تركها، واتجه شمالاً ليمر قريبًا من بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وخاف **الناصر لدين الله** الخليفة العباسي على نفسه؛ فحصَّن المدينة وجهَّز الجيوش لدفع جلال الدين، ولكن لم يكتفِ بذلك بل فعل فعلاً شنيعًا بشعًا مقززًا؛ إذ إنه أرسل إلى التتار يستعين بهم على حرب جلال الدين!!!!..

سبحان الله!!! أيأتي بالتتار إلى حرب جلال الدين وهو يعلم تاريخهم وحروبهم مع المسلمين؟! وحتى لو كان الظلم كل الظلم مع جلال الدين، والحق كل الحق مع الخليفة؛ أيأتي بالتتار لنجدته؟! أَمَا عَلِمَ أن التتار إذا قضوا على جلال الدين فإن الخطوة التالية مباشرة هي القضاء على الخلافة العباسية؟!..

ماذا أردت يا خليفة المسلمين؟!

أردت أن تطيل فترة مُلكك أعوامًا قليلة؟! أم أردت أن تموت عبدًا للتتار بدلاً من أن تكون عبدًا لجلال الدين؟! ليس هذا دفاعًا عن جلال الدين.. بل نلومه أشد اللوم على تفريق طاقة المسلمين وجعل بأسهم بينهم، **ولكن لا يكون الحل أن نأتي بقوة كافرة مهولة مروعة لنزرعها في داخل بلاد المسلمين تحل لهم مشاكلهم، وتعالج لهم أمراضهم..**

ومع استعانة الخليفة بالتتار إلا أن التتار كانوا مشغولين ببسط سيطرتهم في المناطق الشاسعة التي احتلوها؛ فلم يحدث بينهم وبين جلال الدين قتال إلا في أواخر سنة ٦٢٨ هجرية.. واستثمر جلال الدين هذه الفترة في بسط سيطرته على المناطق المحيطة ببغداد، ولكنه لم يستطع أن يدخل بغداد الحصينة، ثم احتل شمال العراق ثم شمال فارس ثم أذربيجان.. وكانت حروبه هو والخوارزمية حروبًا شرسة مفسدة، مع أن البلاد المغنومة كلها بلاد إسلامية!؛ فكان يفعل بهم الأفاعيل من قتل وسبي ونهب وتخريب.. وبلغ سلطانه من جنوب فارس إلى الشمال الغربي لبحر قزوين؛ وهي -وإن كانت منطقة كبيرة- إلا أنها مليئة بالقلاقل والاضطرابات، بالإضافة إلى العداءات التي أورثها جلال الدين في قلوب كل الأمراء في الأقاليم المحيطة بسلطانه، بما فيهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله..

وفي آخر سنة **٦٢٢** هجرية توفي الخليفة الظالم الفاسد **الناصر لدين الله** بعد أن حَكَمَ البلاد سبعة وأربعين عامًا متتالية، وكان قبيح السيرة في رعيته؛ فقد خرَّب العراق، وظلم أهله، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وطفَّف لهم في المكاييل، وفرضَ عليهم الرسوم الجائرة، والأحكام الظالمة.. وفوق كل ذلك فعل الذنب العظيم الذي تصغُر بجواره كل ذنوبه؛ وهو مراسلة التتار، ومحاولة التعاون معهم ضد المسلمين..

ثم حدث أمر هام جدًا في سنة **٦٢٤** هجرية؛ وهو وفاة القائد التتري السفاح "جنكيز خان" عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة؛ ملأها بالقتل والذبح وسفك الدماء والسلب والنهب، وبنى خلال فترة حكمه مملكة واسعة؛ من كوريا في الشرق إلى فارس في الغرب.. وبموت "جنكيز خان" هدأت الأمور نسبيًا في المنطقة، واحتفظ التتار بما ملكوه من بلاد المسلمين إلى وسط إيران تقريبًا، بينما كان جلال الدين يبسط سيطرته على المناطق الغربية من إيران والمناطق الغربية من بحر قزوين.. وظل المسلمون في هذه الفترة على عهدهم من الخلاف والشقاق، والنفاق وسوء الأخلاق.. وما استغلوا مصيبة التتار في زعيمهم الكبير "جنكيز خان" ليجمعوا صفهم ويحرروا بلادهم؛ بل شغلوا أنفسهم بحرب بعضهم البعض، وبظلم بعضهم البعض.. لقد كانت المنطقة بأسرها تموج بالاضطرابات والفتن؛ ليس في منطقة العراق وفارس فقط، بل في كل ديار المسلمين؛ فالحروب بين أمراء المسلمين في الشام ومصر كانت مستمرة، ولم تتحد كلمتهم أبدًا؛ مع أن معظمهم من نفس العائلة الأيوبية، بل وأحيانًا من الإخوة الأشقاء..

وعند رؤية مثل هذه الأحداث في كل بلاد المسلمين، نعلم لماذا فعل التتار ذلك بهذه البلاد مع ضخامتها وأعدادها وثرواتها.. ولا جرم أن هذه سُنة مطردة في الكون؛ فإن من كانت هذه حالته فلابد أن يُسلَّط عليه طواغيت الأرض؛ فالله عز وجل لا ينصر إلا من ينصره: **(وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)**- سورة الحج, آية ٤٠..

وبدأت سنة **٦٢٨** هجرية تحمل هجمة تترية بشعة جديدة على الأمة الإسلامية، وجاءت جحافل التتار بقيادة "شورماجان"، ودمرت في طريقها كل ما يمكن تدميره، وكان لها هدف رئيسي؛ وهو الإمساك بجلال الدين بن خوارزم. والتقى بهم جلال الدين في موقعة هُزِم فيها شر هزيمة، وأسرع بالفرار من أمام التتار وقد تمزَّق جيشه، وإذا به يلقى نفس المصير الذي لقيه أبوه منذ أحد عشر عامًا؛ فهو يفر من قطر إلى قطر، ومن مدينة إلى مدينة، والتتار خلفه يقتلون ويسبون وينهبون، حتى وصل جلال الدين إلى أرض الجزيرة بشمال العراق؛ حيث تفرق عنه جنوده أجمعون، وبقي وحيدًا شريدًا طريدًا؛ تمامًا كما حدث مع أبيه، وأخذ ينتقل بمفرده بين القرى فرارًا من التتار، ثم وصل إلى إحدى القرى؛ حيث استقبله فلاح من الأكراد وسأله: "من أنت؟" فقال له جلال الدين: "أنا ملك الخوارزمية"، وكانت جنود الخوارزمية قد قتلت أخًا لهذا الفلاح!! فلما علم الفلاح بأن هذا هو جلال الدين استقبله وقدم له الطعام، ثم اطمأن جلال الدين فنام، وهنا قام الفلاح وقتل جلال الدين بالفأس، وأخذ ما عليه من

الجواهر وسلمها إلى "**شهاب الدين غازي**" صاحب هذه المنطقة، والذي طالما ذاق من ويلات جلال الدين..

وهكذا كانت نهاية الظالمين.. ونهاية المفرطين.. ونهاية الذين تملكوا رقاب العباد فما رعوا لله حقًا، وما رعوا للرعية حقًا، وما رعوا للرحم حقًا، وعاشوا لأنفسهم فقط. وحقًا، ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط..

ونتيجة العوامل السابقة، ونتيجة سوء التربية، وغياب الفهم الصحيح للإسلام، والتمسك بالدنيا إلى أقصى درجة، وعدم وضوح الرؤية عند الناس. ونتيجة الحروب التترية السابقة، والتاريخ الأسود في كل مدينة وقرية.. نتيجة كل هذه العوامل فقد دبت الهزيمة النفسية الرهيبة في داخل قلوب المسلمين؛ فما استطاعوا أن يحملوا سيفًا، ولا أن يركبوا خيلاً، بل ذهب عن أذهانهم أصلاً التفكير في المقاومة.. وهذا -ولا شك- سهَّل جدًا من مهمة التتار الذين وجدوا أبوابًا مفتوحة، ورقابًا جاهزة للقطع!!..

وظل القائد التتري "شورماجان" يرسخ حكم التتر في هذه المناطق لمدة خمس سنوات كاملة؛ من سنة **٦٢٩** هجرية إلى سنة **٦٣٤** هجرية. وأثناء هذه السنوات الخمس لم تخرج عليه ثورة مسلمة، ولم يتحرك له جيش مسلم، مع أن جيوش المسلمين تملأ المناطق المجاورة لفارس وأذربيجان؛ وذلك في العراق والموصل ومصر والحجاز وغيرها.. لكن الكل كان يشعر أن هذا أمر يهم أهل فارس وأهل أذربيجان، وليس مصيبة عامة على عموم المسلمين.. ولم يشعر المسلمون في الأقطار التي لم تُصَب بعد بويلات التتار أن عليهم واجبًا تجاه هذه البلاد المنكوبة.. وفي ذات الوقت لم يشعروا أن الدائرة حتمًا ستدور عليهم في يوم من الأيام.. أضف إلى ذلك أن المسلمين في مناطق العراق والشام ومصر والحجاز كان غالبيتهم من العرب، بينما غالب المسلمين في إقليم فارس وأذربيجان وشرق الدولة الخوارزمية كانوا من غير العرب.. ومع غياب الفهم الإسلامي الصحيح، وغياب الاستيعاب الكامل للأسس الحقيقية التي يبني عليها هذا الدين؛ ما عاد العربي يشعر بأخيه غير العربي، ولا العكس. وكأنهم أغراب عن بعضهم البعض.. بينما هم في الحقيقة إخوة: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)**- سورة الحجرات, آية ١٠.. وأمر شنيع ألا يشعر المسلم العربي بأخيه المسلم التركي أو الأفغاني أو الشيشاني أو الهندي أو الفارسي. هذا أمر شنيع، وقاصمة لظهر الأمة الإسلامية؛ فالإسلام دين لا يرتبط بعِرق ولا عنصر ولا لون.. إنما الرابط الوحيد هو الإيمان بالله ورسوله وبهذا الدين؛ أي رباط العقيدة، ولا شيء غير العقيدة..

وفي سنة **٦٣٤** هجرية بدأ جيش آخر من جيوش التتار بزعامة "باتو بن جاجي" في قيادة الحملات التترية شمال بحر قزوين، ثم في سنة **٦٣٥** هجرية بدأ الزحف على البلاد الروسية الواسعة وقام بالمذابح الشنيعة في روسيا النصرانية؛ فاستولى على العديد من المدن الروسية؛ وذلك في سنتي **٦٣٥ و٦٣٦** هجرية.. وسقطت تحت أقدام هذا الجيش مدن "ريدان"، ثم "كولومونا" بعدها بأيام، ثم سقطت مدينة "فلاديمير" الكبيرة بعد صمود ستة أيام فقط، واقترن سقوطها بمذبحة بشعة، ثم سقطت "سوذال"، ثم توجهت الجيوش التترية إلى أعظم مدن روسيا وهي "**موسكو**" فتم اجتياحها وتدميرها، ثم سقطت بعد ذلك مدن "يوريف" و"جاليش" و"بريسلاف" و"روستوف" و"ياروسلاف"، ثم سقطت مدينة "تورزوك" وبذلك احتل التتار دولة روسيا بكاملها!!..

وفي سنة **٦٣٨** هجرية تحركت جيوش التتار غربًا بقيادة "باتو بن جاجي" فاحتلت دولة أوكرانيا بكاملها، واجتاحوا العاصمة "**كييف**" ودمروا كنوزها العظيمة، ولقى أكثر سكانها مصرعهم..

وفي سنة **٦٣٩** هجرية زحفت فرقة من قوات التتار بقيادة "بايدر" إلى الشمال الغربي من دولة أوكرانيا؛ فدخلت مملكة بولندا، ودمرت الكثير من المدن البولندية، فاستعان الملك البولندي بالفرسان الألمان (ألمانيا تقع في غرب بولندا

مباشرة)؛ فجاء الأمير هنري دوق "سيليزيا الألمانية" واشترك مع ملك بولندا في تكوين جيش واحد لملاقاة التتار، غير أن هذا الجيش لقي هزيمة ساحقة على أيدي الجيوش التترية بقيادة "بايدر"؛ وبذلك سقطت بولندا تحت حكم التتار..

وفي هذه الأثناء، وفي نفس السنة (سنة **٦٣٩** هجرية) ترك "باتو" -قائد التتار المتمركز في أوكرانيا- فرقة تترية في هذه المنطقة، واتجه بجيشه الرئيسي غربًا إلى مملكة المجر؛ حيث التقى مع ملك المجر في موقعة رهيبة دمر على إثرها الجيش المجري بكامله؛ وبذلك احتلت المجر أيضًا، بل ونزل "بايدر" من بولندا إلى اتجاه الجنوب لمقابلة جيوش التتار بقيادة باتو في المجر، وهو في طريقه للنزول اجتاح دولة "سلوفاكيا" وضمها بكاملها إلى دولة التتار..

ثم تدفقت الجيوش التترية إلى دولة "كرواتيا" فاجتاحتها، ووصلت الجيوش التترية إلى سواحل البحر الأدرياتي (وهو البحر الفاصل بين كرواتيا وإيطاليا) وبذلك يكون التتار قد ضموا إلى أملاكهم نصف أوروبا تقريبًا!!..

وكان من الممكن أن تستمر الفتوحات التترية في أوروبا وقد وصلت حدود دولة التتار إلى دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا لولا أن خاقان التتار "أوكتاي" مات في هذا العام (**٦٣٩** هجرية)؛ فاضطر الأمير "باتو" أن يوقف الحملات، ويستخلف أحد قواده على المناطق المفتوحة، ويعود إلى **"قراقورم"** عاصمة التتار في منغوليا للمشاركة في اختيار الخاقان التتري الجديد..

وقفة لتحليل الموقف الجديد وتقييم الأوضاع في سنة ٦٣٩ هجرية وما بعدها:

أولاً– وصلت حدود دولة التتار في هذه السنة من كوريا شرقًا إلى بولندا غربًا، ومن سيبريا شمالاً إلى بحر الصين جنوبًا.. وهو اتساع رهيب في وقت محدود.. وأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هي القوة الأولى في العالم بلا منازع.

ثانيًا– تولى قيادة التتار بعد " أوكتاي" ابنه "كيوك بن أوكتاي"؛ وقد كان لهذا الخاقان الجديد الرأي في تثبيت الأقدام في البلاد المفتوحة، بدلاً من إضافة بلاد جديدة قد لا يقوى التتار على حفظ النظام فيها؛ ومن ثم فقد توقفت الفتوحات التترية، وإن ظل التتار يحافظون على أملاكهم الواسعة.

ثالثًا– ابتلع التتار -في فتوحاتهم السابقة- النصف الشرقي للأمة الإسلامية، وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم، وقضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما قضوا تمامًا على أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة.

رابعًا– ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي -والذي يبدأ من العراق إلى مصر- مفرقًا مشتتًا؛ لا يكتفي فقط بمشاهدة الجيوش التترية وهي تُسقِط معظم ممالك العالم في وقتهم، وإنما انشغلوا بالصراعات الداخلية بينهم، وازداد تفككهم بصورة كبيرة.

خامسًا– ذاق الأوربيون النصارى من ويلات التتار كما ذاق المسلمون من قبل، وذُبح منهم مئات الآلاف أو الملايين، ودُمرت كنائسهم، وأُحرقت مدنهم، وهُددوا تهديدًا بشعًا باحتمال أن يصل التتار إلى عقر دار الكاثولكية النصرانية في روما.

سادسًا– ومع أن النصارى رأوا أفعال التتار إلا أن ملوك النصارى في أوربا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف تقف عند فترة من الفترات. أما حروب النصارى الصليبيين ضد المسلمين فهي حروب دائمة لا تنتهي؛ ومن ثم فقد كان ملوك الصليبيين على استعداد كامل للتعاون مع التتار -رغم كل الأعداد الهائلة التي قُتلت منهم- بدلاً من التعاون مع المسلمين.

أما لماذا يعتقد الصليبيون أن حرب المسلمين دائمة وحرب التتار مؤقتة؛ فإن ذلك يرجع إلى أن حرب النصارى مع المسلمين هي حرب عقيدة، والعداء بين المسلمين والصليبيين يقوم على أساس ديني، والصراع بينهما أبدي، ولا ينتهي إلا بدخول إحدى الطائفتين في دين الأخرى؛ كما يقول الله عز وجل في كتابه: **(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)**- سورة البقرة, آية ١٢٠.. أما حروب التتار فلم تكن حروب عقيدة؛ فعقيدة التتار كانت عقيدة مشوَّهة باهتة فهي مجموعة من أديان شتى، ولا يسعى قائد تتري واحد إلى نشر هذه العقيدة في البلاد المغنومة؛ إنما كان هدف التتار فقط هو الإبادة والتشريد وجمع المال وسبي النساء والأطفال، ومن كانت هذه صفته فلا يتوقع له الاستمرار؛ لذلك فإنه على الرغم من الصدمات التي تلقتها أوروبا على يد التتار، إلا أن أوروبا استمرت في تجهيز حملاتها لغزو بلاد المسلمين من ناحية مصر والشام، بدلاً من تكثيف الجهود لصد التتار، وفي ذات الوقت فإن حكام أوروبا الغربية الصليبيين ما يئسوا من إمكانية التعاون مع خاقان التتار لسحق الأمة الإسلامية.

سابعًا- بدأ يحدث تغير عقائدي في الجيش التتري بعد حملات التتار في أوروبا؛ فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات؛ وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبيًا في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين التتار والصليبيين.

ثامنًا- استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين في مصر والشام، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين، ولكن كانت هذه هي آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم البعض، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى : التتار من ناحية، والصليبيين من ناحية أخرى.

تاسعًا- في سنة **٦٤٠** هجرية توفي **المستنصر بالله** الخليفة العباسي، وتولى الخلافة العباسية **المستعصم بالله** وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عامًا، وهو -وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن، وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير- إلا أنه لم يكن يفقه كثيرًا في السياسة, ولم يكن له علم بالرجال؛ فولى بطانة السوء، وازداد ضعف الخلافة عما كانت عليه، وسنرى له ذِكرًا بعد ذلك؛ فهو آخر الخلفاء العباسيين، وهو الذي ستسقط بغداد في عهده بعد ذلك.

عاشرًا- لم يبقَ فاصل بين التتار والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس؛ وهو وإن كان ضيقًا إلا أنه كان مهمًا؛ إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية الخطرة، وكانوا كما ذكرنا أهل حرب وقتال، وكانوا على خلاف دائم مع الخلافة العباسية، وكراهية شديدة للمذهب السني، وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيرًا؛ فمرة يراسلون التتار، ومرة يراسلون الصليبيين، وكان التتار لا يطمئنون لهم؛ فالتتار ما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض.

وخلاصة القول -بعد هذا التحليل- إن "كيوك بن أوكيتاي" (خان التتار الجديد) استلم مملكة واسعة تُعدّ هي القوة الأولى في العالم، وإن الصليبيين -بالرغم مما ذاقوه من التتار- ما زالوا يطمعون في التعاون معهم ضد المسلمين، والمسلمون في خلافات مستمرة وتحت ضغوط تترية من ناحية وصليبية من ناحية أخرى، وليس لقائد مسلم في ذلك الوقت أي طموح في تحرير البلاد واستنقاذ العباد؛ إنما فقط تثبيت السلطان على البقعة التي يعيش عليها مهما صغُرت أو ضعُفت، ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

وطوال ولاية "كيوك بن أوكيتاي" -خاقان التتار الجديد- استمر قراره أن يوقف الحملات التوسعية، ويتفرغ لتثبيت الأقدام في أجزاء مملكته المختلفة. وقد ظل "كيوك" يحكم من سنة **٦٣٩** هجرية إلى سنة **٦٤٦** هجرية. وفي هذه السنوات السبع لم يدخل التتار بلادًا جديدة إلا فيما ندر.. وكانت فترة هدوء نسبي في المناطق المجاورة لمملكة التتار، وإن كانت المناطق المنكوبة بالتتار ما زالت تعاني من ظلم وبشاعة الاحتلال التتري.. ومات "كيوك" في سنة **٦٤٦** هجرية، ولم يكن قد ترك إلا أولادًا ثلاثة صغارًا لا يصلحون للحكم في هذه السن الصغيرة؛ فتولت أرملة "كيوك" -وكانت تدعى "أوغول قيميش"- الوصاية عليهم -ومن ثم حكم التتار- وذلك ابتداءً من سنة **٦٤٦** هجرية، ولكن عامة قواد التتار لم يكونوا موافقين على حكم امرأة لدولة التتار العظيمة، والتي تعتمد -في الأساس الأول- على البطش والإجرام والقوة؛ ومن ثم اجتمع المجلس الوطني للتتار والمسمى "**بالقوريلتاي**" -وذلك في سنة **٦٤٩** هجرية- وقرروا اختيار خاقان جديد للتتار، وبالفعل اختاروا "منكوخان" ليكون زعيمًا جديدًا للتتار..

وكان اختيار "منكوخان" زعيمًا لمملكة التتار بداية تحول في سياسة التتار، وبداية تغيير جذري في المناطق المحيطة بالتتار؛ فقد كانت لديه سياسة توسعية شبيهة بسياسة "جنكيز خان" المؤسس لدولة التتار؛ ومن ثم بدأ يفكر من جديد في إسقاط الخلافة العباسية، وما بعدها من بلاد المسلمين، وساعده في ذلك أخوه الشهير "**هولاكو**" الزعيم التتري السفاح؛ والذي كان لا يمتلك أي نزعة إنسانية، وكان رجلاً لا يرتوي إلا بدماء البشر.. وقد تسلم "هولاكو" قيادة قطاع فارس الإسلامي؛ ومنذ ذلك الحين وهو يعد العُدة لإسقاط الخلافة العباسية.. والحق أن إعداده كان مبهرًا عظيمًا بقدر ما كان رد فعل المسلمين لهذا الإعداد تافهًا حقيرًا.. وإذا كان الوضع كذلك فلابد أن ينتصر "هولاكو" على مناوئيه وإن كانوا مسلمين؛ ذلك لأن الله -عز وجل- له سُنن لا تتبدل ولا تتغير، والذي يأخذ بأسباب النصر من أهل الدنيا يعطيه الله -عز وجل- ما طلب وإن كان كافرًا، والذي لا يعد نفسه ليوم اللقاء لابد أن يُهزم وإن كان مسلمًا.. **(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ)**- سورة هود, آية ١٥..

الإعداد لسقوط بغداد:

ماذا فعل "هولاكو" لكي يسقط الخلافة العباسية؟

لقد بدأ "هولاكو" عمله في سنة **٦٤٩** هجرية بحمية شديدة؛ ومع ذلك فإنه كان يتحلى بالصبر والأناة، والإتقان في كل خطوة؛ فمع حقده الشديد ورغبته الملحة في تدمير الخلافة الإسلامية، واشتياقه الكامل لكنوز العباسيين. ومع كثرة جنوده وتفوقه العسكري الظاهر، إلا أنه -برغم كل هذا- لم يتسرع في أخذ قرار الحرب ضد الخلافة العباسية، بل ظل يعد العدة في صبر حتى مرت خمس سنوات كاملة من سنة **٦٤٩** هجرية إلى سنة **٦٥٤** هجرية وهو يعمل في نشاط لكي يكون جاهزًا في إعداده..

أولاً- الاهتمام بالبنية التحتية وتجهيز مسرح العمليات وضمان استمرارية وسيولة الإمداد والتموين:

١- بدأ "هولاكو" في إصلاح كافة الطرق المتجهة من الصين إلى العراق؛ وهي مسافات رهيبة، لكنه عمل على تهيئتها لاستيعاب الأعداد الهائلة من الجيوش التترية.

٢- أقام "هولاكو" الجسور الكثيرة والكبيرة على الأنهار التي تعترض طريق الجيوش، وبالذات نهري سيحون وجيحون، ووضع قوات كافية تحمي هذه الجسور.

٣- جهز "هولاكو" عربات ضخمة صُنعت خصيصًا لحمل أدوات الحصار الكبيرة من الصين إلى بغداد.

٤- بدأ "هولاكو" في السيطرة على كل المدن والمراكز التي تتحكم في محاور الطرق؛ وبذلك تجنَّب حدوث أي مباغتة أو قطع لطرق جيشه أثناء سيرها.

٥- قام "هولاكو" بإخلاء كل الطرق من الصين إلى بغداد من قطعان الماشية؛ وذلك لترك الحشائش والأعشاب لتكفي لطعام الأعداد الهائلة من الخيول الخاصة بالفرسان، والدواب المكلفة بحمل العتاد الحربي والغذاء والخيام وغير ذلك؛ وبذلك لا يحتاج أن يحمل معه طعامًا للحيوانات، ولا يتعرض لمفاجأة غياب الطعام!

ثانيًا- الاستعداد السياسي والدبلوماسي:

بدأ التتار في محاولة عقد بعض الأحلاف السياسية مع بعض الأطراف وموازين القوى المختلفة؛ وذلك لضمان نجاح المهمة الكبيرة؛ وهو تغير كبير في السياسة التترية التي ما عرفت قبل ذلك تحالفًا ولا دبلوماسية..

١- في البداية استقبل "منكوخان" خاقان التتار سفارة صليبية أرسلت من قبل لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٥١ هجرية، وبدأت المفاوضات للتعاون، ولكن سريعًا ما فشلت هذه المفاوضات، والسبب أن "منكوخان" كان رجلاً صريحًا للغاية، ولم يكن يعرف السياسة من وجهة نظر الغرب، ولم يكن يعرف الطرق الغربية الملتوية، وتنميق الألفاظ واختيار العبارات، والحصول على ما تريد دون أن يشعر الطرف الآخر أنه يفرِّط؛ ولذلك قال "منكوخان" في بداية مفاوضاته إنه لا يقبل أن يكون في العالم سيد سواه، **وإنه لا يعرف كلمة "صديق"، بل يعرف كلمة "تابع"**؛ فأصدقاؤه هم من يتبعونه ويعلنون الولاء له والطاعة، وأعداؤه هم الذين يحاربونه، وهؤلاء ليست بينه وبينهم مفاوضات؛ إنما لهم السيف والإبادة.. وهي سياسة بسيطة جدًا!!؛ سياسة **"القطب الواحد"** في العالم!!؛ **فهو يقسم العالم إلى دول "صديقة" (أي تابعة).. ودول "مارقة" (أي معادية!)** وبالطبع رفض ملك فرنسا أن يتحالف على أساس هذا الشرط؛ ومن ثم فشلت المفاوضات الأولى بين التتار وبين نصارى غرب أوروبا.

٢- وإذا كان نصارى غرب أوروبا وملوكها القدماء يرفضون التعاون مع "منكوخان" على أساس التبعية، فهناك من الملوك الآخرين من يقبل بذلك، ويعتبره نوعًا من "الواقعية"؛ فقد فكر "هيثوم" ملك أرمينية النصرانية في التحالف مع التتار على أساس التبعية كما يريد "منكوخان"؛ فملك أرمينية يعلم قوة التتار، بل ودُمرت بلاده من قبل على أيديهم في حياة "جنكيز خان" ثم أوكيتاي، ويعلم أيضًا أنه محصور بين قوات التتار من جهة وقوات المسلمين من جهة أخرى، والعداء قديم جدًا بينه وبين المسلمين؛ وهو يتحرق شوقًا لإسقاط الخلافة العباسية، وإن لم يقبل الآن بالتبعية للتتار فسيرغم عليها غدًا، وساعتها سيفقد ملكه بلا ثمن..

كل هذا دفعَ "هيثوم" ملك أرمينية أن يذهب بنفسه لمقابلة "منكوخان" في **قراقورم** عاصمة المغول.. ويبدو أن منكوخان قد بدأ يتعلم طرق السياسة، وبدأ يتعلم الاعتماد على المظاهر والكلمات المنمَّقة؛ فقد أقام "منكوخان" احتفالاً كبيرًا واستقبالاً رسميًا مهيبًا "لهيثوم" ملك أرمينية، وعامله كملك لا كتابع، وإن كانت كل بنود الاتفاق بينهما لا تكون إلا بين سيد وتابع، لا ملك وملك. وبعد الاستقبال الحافل لملك أرمينية (الذي قدَّم نفسه على أنه **من رعايا "منكوخان"**؛ فقد كان هو أيضًا يتقن السياسة!!) بدأ منكوخان يعطي وعودًا كبيرة وهدايا عظيمة إلى هذا الملك ليشتري بذلك ولاءه وتبعيته.. فماذا أعطاه "منكوخان"؟

لقد أعطاه ما يلي:

أ- ضمان سلامة ممتلكات الملك "هيثوم" الشخصية.

ب- إعفاء كل الكنائس المسيحية والأديرة من الضرائب.

ت-مساعدة الأرمن في استرداد المدن التي أخذها السلاجقة المسلمون من الأرمن.

ث-اعتبار ملك أرمينية هو كبير مستشاري الخان الكبير "منكو" فيما يختص بشئون غرب آسيا.

وهكذا سعد ملك أرمينية "هيثوم" بقربه من ملك التتار، ولكن يجب أن نتساءل: **لماذا كان هذا العطف التتري على ملك أرمينية النصراني؟** فالناظر للقوى العسكرية في ذلك الوقت يجد أن القوة العسكرية لأرمينية لا تقارن بالمرة بقوة التتار، وقد لا تضيف إليها عددًا مؤثرًا؛ فلماذا يتواضع ملك التتار ويعقد معاهدة مع ملك أرمينية؟ الناظر **والمحلل لهذا الحدث يجد ما يلي:**

أولاً- سيستفيد التتار من خبرة أرمينية في حرب المسلمين؛ فالعلاقة بين الأرمن والمسلمين قديمة، وقد خَبِر الأرمن بلاد المسلمين وطبائعهم، ولا شك أن المعلومات الصادقة التي سيحملها الأرمن إلى التتار سيكون لها أبلغ الأثر في حرب المسلمين.

ثانيًا- سيحتاج ملك التتار إلى أعوان لإدارة هذه الأملاك الواسعة؛ فإذا كان المديِّر من أهل البلد، وله ولاء ووفاء له (أي لملك التتار) فهو أفضل من الإدارة الخارجية، وأقدر على السيطرة، وأكثر تهدئة لغضب الشعوب.

ثالثًا- بهذه الخطوة يفتح ملك التتار باب المعاملات من جديد مع النصارى، والذين قد يحتاجهم "منكوخان" بعد ذلك عند استكمال فتوحاته في داخل الشام ومصر؛ فقد يحتاج "منكوخان" ملك أرمينية في استئناف المفاوضات مع ملوك أوروبا، هذا بالإضافة إلى أن ملك التتار يعلم أن في قلوب النصارى كراهية شديدة للتتار؛ وذلك للمذابح البشعة التي قام بها التتار في روسيا وشرق أوروبا، وقد يكون التعاون مع ملك أرمينية فرصة لتقريب وجهات النظر لرعاية المصالح المشتركة.

رابعًا- الاتحاد مع أرمينية سيكون له عامل نفسي عند المسلمين؛ فالحرب مع التتار شيء، والحرب مع **قوات "التحالف"** شيء آخر!! نعم القوات المتحالفة مع التتار لا تمثل شيئًا يُذكر في جيش التتار، ولكن كلمة **"التحالف"** لها وقع خاص على النفوس.

خامسًا- قد توكل إلى القوات الأرمينية المتحالفة مع التتار بعض المهام الخطرة، والتي قد يرغب ملك التتار في تجنُّبها؛ وبذلك تكون الخسارة البشرية في جانب الأرمن بدلاً من التتار.

وهكذا؛ فالناظر إلى هذه المفاوضات بين التتار والأرمن يجد أن التتار لم يخسروا شيئًا مطلقًا، وأن المفاوضات بين سيد يملك كل شيء، وتابع لا يملك أي شيء. وهكذا يفعل الزعماء الكبار في العالم؛ فإنهم يعقدون معاهدات مع ملوك صغار لا يحملون من صفات الملك إلا الاسم فقط، ويوكلون إليهم مهامًا تكليفية كثيرة، والمقابل لا يكون أكثر من السماح لهم بمجرد العيش إلى جوارهم في الأرض، مع إمكانية منحهم بعض الألقاب الفخرية مثل "كبير مستشاري ملك التتار لشئون غرب آسيا" أو لقب "الملك الصديق" أو **"الدولة الصديقة" أو "العلاقات الحميمة بين البلدين" أو "فخامة الرئيس" أو "جلالة الملك"!!**؛ فهذه مجرد ألقاب لا تسمن ولا تغني من جوع، والواقع الحقيقي أن القوة التي بيد التتار هي التي فرضت بنود المعاهدة؛ وهذا يحدث ويتكرر في كل الأزمان والأمكنة فالحقوق لا تحمى إلا بالقوة.. وهكذا عاد ملك أرمينية "هيثوم" منتشيًا بمعاهدته، فخورًا بعلاقته مع ملك التتار، معظمًا في شعبه؛ لأنه استطاع بسياسته "الحكيمة" أن يجنب مملكته ويلات الحروب!!..

٣.كان من رغبات "منكوخان" أيضًا أن يعقد تحالفات مع أمراء الممالك الصليبية في الشام، وكان لهم أكثر من

مملكة في أنطاكية وطرابلس وصيدا وحيفا وعكا؛ وذلك لشغل المسلمين في منطقة الشام فلا يدافعون عن الخلافة العباسية إذا هوجمت. ولتشجيع هؤلاء الأمراء فقد أوصل لهم ملك التتار طلب التحالف مع "صديقه" الجديد ملك أرمينية؛ والذي بدأ يقوم بدور السفير التتري في هذه المنطقة. ولزيادة التشجيع فإن ملك التتار وعد الأمراء الصليبيين في الشام بأنه سيعطيهم بيت المقدس هدية لهم في حال اتفاقهم معه!.. وكأنه يملك بيت المقدس، وله الحق في إهدائه؛ **وهكذا وعد من لا يملك بإعطاء من لا يستحق** (ويتكرر ذلك في التاريخ كثيرًا!)..

ومع كل هذا التشجيع إلا أن أمراء الممالك الصليبية بالشام ترددوا كثيرًا في قبول هذه الاتفاقيات، باستثناء أمير أنطاكية "بوهمند" الذي استحسن هذا الأمر وانضم إلى ملك التتار. أما لماذا لم يستحسن بقية الأمراء الصليبيين في الشام هذه الفكرة؛ فذلك لأنهم – أولاً– يعلمون أن التتار لا عهد لهم، وقد يبيعونهم دون ثمن، أو يضحون بهم في مقابل أي شيء، وثانيًا– لأنهم في قلب العالم الإسلامي، وخطورة المسلمين عليهم كخطورة التتار، بل لعلها خطورة أقرب.

ومن ثم؛ لم يتحمس هؤلاء الأمراء للتحالف المعلن مع التتار، وإن كانوا لم يرفضوا الأمر صراحة، وتعاملوا مع الطلب بالطريقة السياسية النفاقية المعروفة، ومع شيء من الابتسامة، وبعض كلمات التبجيل، واختاروا أن يقفوا على الحياد بصورة مؤقتة، إلى أن ترجح إحدى الكفات. وهنا سوف يسارعون إلى الفئة المنتصرة، يصافحون ويباركون ويهنئون، ويعتذرون أنه لولا **"الظروف القاسية"** التي كانت تمر بها بلادهم لهان عليهم كل شيء في سبيل راحة المنتصر!.. وهذا ما يسميه البعض **"السياسة"**!!..

٤– سعى "منكوخان" أيضًا إلى عقد بعض الاتفاقات مع نصارى الشام؛ وهؤلاء ليسوا من الأمراء أو الملوك، ولكنهم من النصارى الذين يعيشون في كنف الإمارات الإسلامية في الشام أو في الخلافة العباسية في العراق. وهذه بالطبع لم تكن اتفاقات رسمية ولا معلنة؛ إنما كانت اتفاقات سرية مع بعض رؤوس النصارى، ومع بعض القساوسة؛ وذلك لتسهيل مهمة دخول التتار إلى هذه البلاد، ولنقل الأخبار من وإلى التتار. وقد نجح "منكوخان" فعلاً في الوصول إلى عدد كبير من هؤلاء النصارى وعلى رأسهم **بطريرك بغداد شخصيًا وهو "ماكيكا"**، وكان عاملاً مساعدًا مهمًا في دخول بغداد.

٥– عقد "منكوخان" أيضًا معاهدات مع مملكة الكرج النصرانية (في جورجيا الآن) مع أن تاريخ التتار مع مملكة الكرج كان تاريخًا أسودَ، ولكن تاريخ الكرج مع المسلمين كان أسودَ كذلك؛ ففضَّل نصارى الكرج التعاون مع عدوهم الجديد التتار ضد عدوهم القديم المسلمين؛ وذلك لأمرين: **الأول–** هو أن التتار لهم القوة الأعلى، ويغلب جدًا على الظن أن ينتصروا، **وثانيًا–** لأن الحرب بين النصارى والمسلمين –كما أشرنا من قبل– حرب عقائدية أبدية، والكراهية أصيلة بين الطرفين.. قال تعالى: **(وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ)**– سورة البقرة, آية ٢١٧.. أما الحرب مع التتار فهي حرب مصالح؛ إذا تعارضت المصالح حدثت الحرب، وإذا اتفقت المصالح حدث الوئام والألفة والصداقة.. وقد اتفقت مصالح مملكة الكرج النصرانية مع مصالح التتار الوثنية؛ فلا مانع من السير معًا في طريق واحد، وهذا أيضًا مما يسمونه: **"سياسة"**!!..

٦– وإذا كانت كل هذه المفاوضات والمعاهدات في كفة، فالمفاوضات التي سأذكرها الآن في كفة أخرى.. ليس لأهميتها فقط ولكن لغرابتها.. أو قل لبشاعتها!!..

فهذه المعاهدات عقدت مع بعض "أمراء المسلمين" لتسهيل ضرب "بلاد المسلمين"!!..

ولم يعقد "منكوخان" هذه المعاهدات بنفسه؛ لأنه استهان جدًا بهؤلاء الأمراء؛ فقد كان كل واحد منهم لا يملك سوى بضعة كيلومترات، ومع ذلك يسمي نفسه أميرًا، بل ويلقب نفسه بالألقاب الفاخرة مثل المعظم والأشرف والعزيز وغير ذلك.. وقد وكل "منكوخان" أخاه "هولاكو" في عقد هذه الاتفاقيات المخزية، فجاء أمراء المسلمين الضعفاء **يسارعون في** التتار الأقوياء.. قال تعالى: **(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ)**- سورة المائدة, آية ٥٢ ..

فجاء إلى "هولاكو" بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ليتحالف معه.. وجاء سلطانا السلاجقة وهما كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع ليتحالفا أيضًا مع هولاكو، وكانا في مكان حساس جدًا؛ فقد كانا في شمال العراق (تركيا الآن)، وتحالفهما يؤدي إلى حصار العراق من الشمال، وقد كان أسلوب كيكاوس الثاني في التزلف إلى التتار مخزيًا جدًا إلى الدرجة التي صدمت التتار أنفسهم!..

ورضخ أيضًا الناصر يوسف أمير حلب ودمشق، وحفيد الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ولكنه لم يكن يشبهه في شيء من الأخلاق والروح؛ بل كان مهينًا إلى الدرجة التي أرسل ابنه "العزيز" لا ليقدم إلى "هولاكو" فروض الطاعة فقط، بل وليبقى معه في جيشه كأحد أمرائه!.. وكذلك جاء الأشرف الأيوبي أمير حمص ليقدم ولاءه لزعيم التتار..

كانت هذه التحالفات في منتهى الخطورة.. فهي -بالإضافة إلى مهانتها وحقارتها- قد زادت جدًا من قوة التتار الذين أصبحوا يحاصرون العراق من كل مكان، ويعرفون أخبار البلاد من داخلها، وفوق ذلك فإن هذه التحالفات أدت إلى إحباط شديد عند الشعوب التي شاهدت حكامها على هذه الصورة المخزية؛ فضعفت الهمم، وفترت العزائم، وانعدمت الثقة في القادة، ومن ثم لم يعد للجميع طاقة للوقوف في وجه التتار؛ فلقد كانت هذه الاتفاقيات جريمة بكل المقاييس!!..

٧- وصل "هولاكو" أيضًا في مجهوده السياسي والدبلوماسي إلى شخصية خطيرة في البلاط العباسي نفسه؛ فلقد وصل إلى كبير الوزراء في الخلافة العباسية والشخصية الثانية في الدولة بعد الخليفة؛ وهو الوزير **"مؤيد الدين العلقمي"** الشيعي!!..

وكان مؤيد الدين رجلاً فاسدًا خبيثًا رافضيًا (يرفض خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما) شديد التشيُّع، كارهًا للسُّنة وللسُّنيين. ومن العجب أنه يصل إلى هذا المنصب المرموق وهو على هذه الصفة، وفي دولة سُنية تحمل اسم الخلافة، ولا شك أن هذا كان قلة رأي، وضحالة فكر، وسوء تخطيط من الخليفة المستعصم..

وهذا الوزير هو ممن ينطبق عليهم وصف **"بطانة السوء"**.. ولا يخفى على عاقل كيف يكون دور بطانة السوء في فساد البلاد، وهلاك العباد.. والأسوأ من ذلك أن هذا الوزير لم يبقَ في مكانه شهرًا أو عامًا، وإنما بقي في مكانه أربعة عشر سنة كاملة!!.. من سنة **٦٤٢** هجرية إلى سنة **٦٥٦** هجرية عندما سقطت بغداد..وإذا مرت كل هذه الفترة دون أن يُدرك الخليفة خطورته؛ فلاشك أن هذا دليل واضح على خِفة عقل الخليفة!!..

اتصل "هولاكو" بمؤيد الدين العلقمي الشيعي، مستغلاً فساده وتشيعه وكراهيته للسُّنة، واتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، والمساعدة

بـالآراء الفاسـدة، والاقتراحـات المضـللة الـتي يعطيهـا للخليفـة العباسـي المستعصـم بـالله؛ وذلـك في مقابـل أن يكـون لـه شـأن في إدارة بغـداد بعـد سـقوط الخلافـة، والتخلص من الخليفة.. وقد قام الوزير الفاسد بدوره على أكمل ما يكون، وكان له أثر بارز على قرارات الخليفة، وعلى الأحداث التي مرت بالمنطقة في تلك الأوقات..

وبالاطلاع على هذه الجهود الدبلوماسية التي قام بها "منكوخان" و"هولاكو" يتبين أنهما بذلا جهدًا كبيرًا ضخمًا للإعداد لهذه الحملة الرهيبة، والتي تهدف إلى أمر خطير لم يحدث قبل ذلك في الدنيا؛ **وهو إسقاط عاصمة الخلافة الإسلامية**..

وخلاصة الجهود التترية أنهم تعاونوا تعاونًا قويًا مهمًا مع ملوك أرمينية والكرج وأنطاكية النصارى، وحيدوا جانب أمراء الإمارات الصليبية بالشام، وأقاموا تحالفات سرية مع نصارى الشام والعراق، وبعض أمراء المسلمين، ومع الوزير الفاسد مؤيد الدين العلقمي الشيعي. ولا شك أن هذه الجهود الدبلوماسية كان لها دور ملموس في إنجاح الخطة التترية لإسقاط الخلافة الإسلامية..

ويجدر القول هنا إن المسلمين بصفة عامة ـإلا من ندر.كانوا يراقبون الموقف عن بُعد وكأنه لا يعنيهم.. أو وهم يشعرون بإحباط قاتل يمنع أي متحمس من القيام والحركة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

ثالثًا– الحرب النفسية على المسلمين:

وقد كانت لهولاكو أكثر من وسيلة لشن هذه الحرب المهولة على المسلمين؛ فعلى سبيل المثال:

١– القيام ببعض الحملات الإرهابية في المناطق المحيطة بالعراق؛ والتي ليس لها غرض إلا بث الرعب وإحياء ذكرى الحملات التترية الرهيبة التي تمت في السابق في عهود "جنكيز خان" و"أوكيتاي"..

٢– ومن وسائل التتار الخطيرة في حربهم النفسية ضد المسلمين؛ الحرب الإعلامية القذرة التي كان يقودها بعض أتباع التتار في بلاد المسلمين والتي يتحدثون فيها عن قدرات التتار الهائلة، واستعدادتهم الخرافية، ويوسعون الفجوة جدًا بين إمكانيات التتار وإمكانيات المسلمين، وتسربت هذه الأفكار إلى وسائل الإعلام في زمانهم، ووسائل الإعلام في ذلك الوقت هي الشعراء والأدباء والقصَّاصون والمؤرخون، وقد ظهر في كتاباتهم ما يجعل المسلمين يحبطون تمامًا من قتال التتار. ولا شك أن مثل هذه الكتابات كانت تُرعب العوام، وأحيانًا تؤثر في الخواص، وهذا من البلاء الذي جنته الأمة على نفسها، وما جناه عليها أحد!!

٣– وكان أيضًا من وسائل التتار المشهورة لشن حرب نفسية على المسلمين، كتابة الرسائل التهديدية الخطيرة، وإرسالها إلى أمراء المسلمين، وكان من حماقة هؤلاء الأمراء أنهم يكشفون هذه الرسائل على الناس فتحدث الرهبة من التتار.

٤– ومن وسائل التتار أيضًا لشن الحرب النفسية على المسلمين، إعلان التحالفات بين التتار وبين الأرمن والكرج وغيرهم، وإبراز رغبة الملوك الصليبيين في أوروبا في التعاون مع ملك التتار، وتضخيم هذه التحالفات جدًا؛ حتى يعتقد المسلمون أنهم يقاتلون أهل الأرض جميعًا، وأنهم لا طاقة لهم بحربهم، مع أن الأيام السابقة في تاريخ المسلمين حملت الكثير من الانتصارات على هؤلاء أنفسهم، وعلى أضعافهم، ولكن نسي المسلمون تاريخهم، وانبهروا بقوة عدوهم وحلفائه..

٥– ومن وسائل التتار أيضًا في حربهم النفسية، التعاون مع أمراء المسلمين كما ذكرنا عند الحديث عن الجهود

الدبلوماسية للتتار؛ فلا شك أن الشعب المسلم إذا وجد قائده -الذي من المفروض أن يتولى أموره ويدافع عنه ويبذل روحه في سبيل تأمين بلده- هو الذي يتمنى أن يصالح هؤلاء التتار ويتعاون معهم، ويعد ذلك إنجازًا من إنجازاته، لا شك أن الشعب المسلم إذا وجد ذلك فإنه يحبط إحباطًا شديدًا، ويفقد كل حماسة للدفاع عن أرضه وعن وطنه.. بهذه الوسائل وبغيرها استطاع التتار أن يبثوا الرعب والهلع في قلوب المسلمين؛ وبذلك أصبح المناخ مناسبًا جدًا لدخول القوات التترية الغازية..

رابعًا- إضعاف جيوش الخلافة العباسية:

وقد عمد "هولاكو" إلى الطلب من الوزير الفاسد مؤيد الدين العلقمي أن يقنع الخليفة العباسي المستعصم بالله أن يخفض من ميزانية الجيش، وأن يقلل من أعداد الجنود، وأن لهم، ولم يعد يذكر فيهم من له القدرة على التخطيط والإدارة والقيادة، ونسي المسلمون فنون القتال والنزال، **وغابت عن أذهانهم معاني الجهاد!!**.. وهذه -والله- الخيانة الكبرى، والجريمة العظمى!!..ويلقي ابن كثير رحمه الله - باللوم الكامل على مؤيد الدين العلقمي في نصائحه للخليفة المستعصم بالله، ولكني ألقي باللوم الأكبر على الخليفة ذاته؛ الذي قبِلَ بهذا الهوان، ورضي بهذا الذل، وغاب عن ذهنه أن من أهم واجباته كحاكم أن يضمن لشعبه الأمن والأمان، وأن يدافع عن أرضه ضد أي غزو أو احتلال، وأن يبذل قصارى جهده لتقوية جيشه، وتسليح جنده، وأن يربي الشعب بكامله -لا الجيش فقط- على حب الجهاد والموت في سبيل الله.. لم يفعل الخليفة المستعصم بالله كل ذلك، ولا عذرَ له عندي، فإنه كان يملك من السلطان ما يجعله قادرًا على أخذ القرار، لكن النفوس الضعيفة لا تقوى على أخذ القرارات الحاسمة..

تمت كل هذه الأمور واكتملت "لهولاكو" في سنة **٦٥٤** هجرية. وهنا أدرك "هولاكو" أن المناخ العام أصبح ملائمًا للهجوم المباشر على الخلافة العباسية؛ فبدأ في عملية لا يصرف أذهان الدولة إلى قضايا التسليح والحرب!.. وقد قام بذلك فعلاً الوزير العميل مؤيد الدين العلقمي؛ وهذا لا يستغرب من مثله، ولكن الذي يُستغرب فعلاً أن الخليفة قَبِلَ هذه الأفكار المخجلة؛ وذلك كما أشار عليه الوزير الفاسد حتى لا يثير حفيظة التتار، وليثبت لهم أنه **رجل "سلام" ولا يريد الحروب!**.. وقام فعلاً بتقليل عدد الجنود وبخفض ميزانية التسليح، حتى أصبح الجيش العباسي المسلم الذي كان يبلغ عدده مائة ألف فارس في آخر أيام المستنصر بالله والد المستعصم بالله وذلك في سنة **٦٤٠** هجرية لا يزيد على عشرة آلاف فارس فقط في سنة **٦٥٤** هجرية!!.. كما أصبح الجنود في حالة مزرية من الفقر، وأُهملت التدريبات العسكرية، وفقد قواد الجيش أي مكانة

حشد هائلة للجنود ليجمع بذلك أكبر جيوش التتار على الإطلاق منذ قامت دولة جنكيز خان؛ بحيث كان الجنود المكلفون بحصار بغداد فقط أكثر من مائتي ألف جندي، هذا بخلاف الأعداد الهائلة من الجنود المنتشرة في شمال العراق وشرقه، والقوات المكلفة بحماية الطرق وتأمين الإمداد والتموين، هذا غير الفرق المساعدة للجيش؛ سواء فرق الإمداد والتموين أو فرق الاستطلاع والمراقبة..

ونستطيع أن نبين تركيبة الجيش التتري كما يلي:

أولاً- الجيش التتري الأصلي والذي كان يتمركز منذ سنوات في منطقة فارس وأذربيجان شرق العراق.

ثانيًا- استدعى "هولاكو" فرقة من جيش التتار المتمركزة في حوض نهر الفولجا الروسي، والتي كانت تحت زعامة القائد التتري الشهير "باتو" (فاتح أوروبا)، وقد أرسل باتو مع الفرقة ثلاثة من أبناء أخيه..

ثالثًا- أرسل "هولاكو" في طلب فرقة من جيش التتار المكلف بفتح أوروبا؛ والذي كان يتمركز على أطراف الأناضول

(شمال تركيا)؛ فجاءت الفرقة وعلى رأسها القائد المغولي الكبير "بيجو"، وقد جاءت هذه الفرقة مخترقة الأناضول وشمال العراق ومتَّجهة إلى بغداد، ولم تلقَ أي نوع من المقاومة أثناء هذا الطريق الطويل؛ لأن حكام هذه المناطق المسلمة كانوا قد أفرغوا المجال الأرضي لقوات التتار، فسارت في أمان وسط إمارات الأناضول والموصل وحلب وحمص!!..

رابعًا– أرسل "هولاكو" إلى **"صديقه"** ملك أرمينية يطلب المساعدة؛ فجاءه "هيثوم" ملك أرمينية بنفسه على رأس فرقة من جيشه.

خامسًا– طلب "هولاكو" أيضًا من ملك الكرج أن يرسل فرقة للمساعدة في حصار العراق فاستجاب فورًا.

سادسًا– استدعى "هولاكو" ألفًا من الرماة الصينيين المهرة الذين اشتهروا بتسديد السهام المحملة بالنيران.

سابعًا– وضع "هولاكو" على رأس جيوشه أفضل قواده، وكان اسمه **"كتبغا نوين"** وفوق إمكانياته القيادية والمهارية، فإنه كان نصرانيًا، وبذلك يستطيع التعامل مع الأعداد الكبيرة النصرانية المشاركة في الجيش..

ثامنًا– راسل "هولاكو" أمير أنطاكية "بوهمند" الذي تعذَّر عليه أن يخترق الشام كله للذهاب إلى العراق، ولكنه كان على استعداد تام للحرب، فإذا سقطت العراق شارك في إسقاط الشام..

تاسعًا– أرسل الناصر يوسف أمير دمشق ابنه العزيز ليكون في جيش "هولاكو"!!..

عاشراً– أرسل أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ أيضًا فرقة مساعدة لجيش التتار (أكراد الشمال العراقي).. وهذه الفرقة –وإن كانت هزيلة– إلا أنها كانت تحمل معانيَ كثيرة؛ فهناك في جيش التتار **مسلمون** يشتركون مع التتار في حرب المسلمين!!..

وبهذا الإعداد عالي المستوى اكتمل الجيش التتري، وبدأ في الزحف من فارس في اتجاه الغرب إلى العراق، وبدأ "هولاكو" يضع خُطة المعركة.. والجدير بالذكر أن هذا الإعداد الطويل المرتب لم يقابل بأقل درجات الاهتمام من جانب المسلمين؛ فحدثت المأساة الكبرى، والبلية العظمى..

إن الذي يعتمد فقط على كونه من الموحدين المسلمين، ولا يعد العدة ولا يأخذ بالأسباب واهمٌ في إمكانية تحقيق النصر.. إن التتار لم ينتصروا على المسلمين لكرامة لهم عند الله –عز وجل؛ فهم من أقبح شعوب الأرض فعلاً، ومن أسوأهم أخلاقًا، ولكنهم أعدوا العدة، وأخذوا بالأسباب فتحققت على أيديهم النتائج التي خططوا لها؛ وهذه سُنة مطردة.. وكثيرًا ما رأينا اليهود أو النصارى أو البوذيين أو الهندوس ينتصرون على المسلمين، إذا أخذ هؤلاء بالأسباب المادية، وتركها المسلمون.. وليس المقصود من وراء ذلك أن يعتمد المسلمون على الأسباب المادية فقط، ويتركوا مسبب الأسباب (سبحانه وتعالى)، إنما المقصود هو العمل الجاد الدؤوب المتواصل مع رفع الأيدي إلى الله بطلب التوفيق والنصر..

والتاريخ . يا إخواني . يتكرر..

وما فعله التتار من إعداد ضد المسلمين فعله غيرهم بعد ذلك.. وما فعله المسلمون من تهاون وإهمال فعله المسلمون بعد ذلك أيضًا.. وإذا كانت النتائج التي حدثت في أيام التتار قد جاءت على تلك الصورة، فلا شك أن النتائج في عصرنا ستأتي على نفس الصورة إلا أن يفقه المسلمون الأمر فيعيدوا من ترتيب أوراقهم وفقًا للفهم الصحيح..

ولذلك نقصُّ التاريخ.. فهل من مدَّكِر!!.

سقوط بغداد

اجتمع "هولاكو" مع كبار مستشاريه في مجلس حرب يعد من أهم مجالس الحرب في تاريخ التتار. لقد أخذ القرار

بغـزو العاصـمة "بغـداد"، وكـان "هولاكـو" قلقًـا مـن أي مفاجئات، وبالذات من الأمراء المسلمين الذين انضموا إلى جيشه؛ ولذلك وضع على الفرق الإسلامية التي معه مراقبة شديدة، ولكن مخاوفه هذه لم تكن حقيقية؛ لأن الأمراء المسلمين الذين انضموا إليه لم يكن في نيتهم أبدًا الغدر "بهولاكو"؛ إنما كان العزم أن يغدروا "ببغداد"!!!!..

كان مجلس الحرب معقودًا في مدينة "همدان" الفارسية (في إيران حاليًا) وهي تقع على مسافة حوالي ٤٥٠ كيلو مترًا من بغداد إلى الشمال الشرقي منها.. وقرر "هولاكو" في هذا المجلس أن يقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

الجيش الأول– هو القلب، وهو القسم الرئيسي من الجيش وسيقوده "هولاكو" بنفسه، وستلحق به الإمدادات مهمة اختراق سهول العراق، والتوجه إلى بغداد من جهة الجنوب، وحصارها من جهتها الجنوبية الشرقية..ومع أن المسافة تبلغ ٤٥٠ كيلومتر إلا أن "هولاكو" كان من الحذر الكافي الذي استطاع معه أن يخفي هذا الجيش عن عيون العباسيين –إن كانت هناك عيون– فلم يكتشف العباسيون الجيش إلا وهو على بُعد كيلو مترات معدودة من بغداد!!..

أما الجيش الثالث– فكان هو الجيش التتري الرابض على أطراف الأناضول (في شمال تركيا الآن)؛ والذي كان مكلفاً بفتح أوروبا قبل ذلك، وعلى رأس هذا الجيش الزعيم التتري الكبير "بيجو"، وكان على هذا الجيش أن يأتي من هذه المناطق الشمالية في اتجاه الجنوب حتى يصل بغداد من شمالها، ثم يلتفّ حولها ليحاصرها من جهة الغرب؛ وبذلك تحصر بغداد بين "هولاكو" شرقًا وكتبغا من الجنوب الشرقي وبيجو من الغرب.. وكان على هذا الجيش الثالث لكي يصل إلى بغداد أن يخترق مسافة خمسمائة كيلومتر في الأراضي التركية، ثم خمسمائة كيلومتر أخرى في الأراضي العراقية!.. وهذه كلها أراضٍ إسلامية!!.. أي إنه يجب أن يسير مسافة ألف كيلومتر في أعماق العالم الإسلامي حتى يصل إلى بغداد!!..

التي سيرسلها "باتو"، وكذلك ستلحق به الفرق المساعدة من مملكتي أرمينية والكرج، وهذا القسم من الجيش سيخترق الجبال الواقعة في غرب فارس صوب بغداد مباشرة، وستكون مهمة هذا الجيش حصار بغداد من الجهة الشرقية.

الجيش الثاني– هو الجناح الأيسر لجيش التتار، وهذا سيقوده **"كتبغا"** أفضل قواد "هولاكو"، وسيتحرك هذا الجيش بمفرده في اتجاه بغداد أيضًا؛ ولكن إلى الجنوب من الجيش الأول. وقد تم فصل الجيشين حتى لا تستطيع المخابرات الإسلامية –إن وُجدت– أن تُقدِّر عدد الجيش الصحيح، بالإضافة إلى أن الطرق لا تستوعب هذه الأعداد الهائلة من الجنود، فضلاً على أن هذا الجيش ستكون له

لقد كانت أقل المخاطر التي تواجه هذا الجيش أن يُكتشف أمره؛ فيفقد عنصر المباغتة، ويستعد له الجيش العباسي قبل وصوله، أما أكبر المخاطر التي كانت في انتظاره فهي أن يجد مقاومة شرسة في طريقه المليء بالتجمعات السكنية الهائلة (وكلها تجمعات إسلامية)، أو تُنصب له الكمائن، وتُوضع له الشراك.. وتذكر أنه يخوض في أرض يدخلها للمرة الأولى في حياته، لكن –سبحان الله– كل هذا لم يحدث.. لقد قطع "بيجو" بجيشه ٩٥ % من الطريق (أي حوالي ٩٥٠ كيلومتر) دون أن تدري الخلافة العباسية عنه شيئًا!!.. لقد باغت "بيجو" الخلافة العباسية على بعد خمسين كيلو متر فقط شمال غرب بغداد، واكتشف العباسيون جيش "بيجو" –تمامًا كما اكتشفوا جيش "هولاكو"– على مسيرة يوم واحد من بغداد!!..

وإن كنا نقول إن جيش "هولاكو" كان يتخفى بالجبال، ويسير في أراضٍ غالبها تحت سيطرة التتار؛ فكيف نفسر مباغتة بيجو لبغداد بهذه الصورة؟!..

إن تبرير اختراق "بيجو" للأراضي الإسلامية يحمل معه مصيبتين عظيمتين: أما المصيبة **الأولى–** فهي غياب المخابرات الإسلامية عن الساحة تمامًا، وواضح أن الجيش العباسي كان لا علم له ولا دراية بإدارة الحروب.. وأما المصيبة **الثانية–** وهي الأعظم، فهي أن هناك خيانة كبرى من أمراء الأناضول والموصل المسلمين، وهذه الخيانة فتحت الأبواب لجيش التتار، ولم يحدث أي نوع من المقاومة، وسار الجيش التتري في هدوء وكأنه في نزهة، وكانت هذه خيانة عظمى من كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع أمراء الأناضول.. وخيانة أعظم من بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل؛ فبدر الدين لؤلؤ لم يكتف بتسهيل مهمة التتار، وبالسماح لهم باستخدام أراضيه للانتقال والعبور، بل أرسل مع التتار فرقة مساعدة تعينهم على عملية **"تحرير العراق" من حكم الخلافة العباسية!**.. ومن

إنه الخليفة السابع والثلاثون والأخير من خلفاء بني العباس في بغداد.. "المستعصم بالله".. اسم كبير.. المستعصم بالله.. ولقب كبير أيضًا: "خليفة المسلمين".. ولكن أين مقومات الخلافة في "المستعصم بالله"؟..

عندما تقرأ عن صفات الخليفة الذاتية في كتب السير مثل تاريخ الخلفاء للسيوطي، أو البداية والنهاية لابن كثير أو غيرها من الكتب تجد أمرًا عجبًا.. تجد أنهم يصفون رجلاً فاضلاً في حياته الشخصية وفي معاملاته مع الناس.. يقول ابن كثير مثلاً: **"كان حسن السيرة جيد السريرة، صحيح العقيدة، مقتديًا بأبيه المستنصر بالله في العدل وكثرة الصدقات، وإكرام العلماء والعباد، وكان سنياً على مذهب السلف"**..

ولا أدري في الحقيقة ماذا يقصد بأنه كان على مذهب السلف؟ ألم يكن في مذهب السلف جهاد؟ ألم يكن في مذهب السلف إعداد للقتال؟ ألم يكن في مذهب السلف دراسة لأحوال الأرض ولموازين القوى؟ ألم يكن في مذهب السلف حمية ونخوة لدماء المسلمين التي سالت على مقربة من الجدير بالذكر أن بدر الدين لؤلؤ قام بهذه الخيانة وهو يبلغ من العمر ثمانين عامًا وقيل مائة!!.. وجدير بالذكر أيضًا أن بدر الدين لؤلؤ مات بعد هذه الخيانة بشهور معدودات!!!.. فنسأل الله حسن الخاتمة..

ماذا كان الوضع في بغداد؟

كانت بغداد في ذلك الوقت من أشد مدن الأرض حصانة، وأسوارها من أقوى الأسوار؛ فهي عاصمة الخلافة الإسلامية أكثر من خمسة قرون، وأُنفق على تحصينها مبالغ طائلة وجهود هائلة.. لكن واأسفاه على المدينة الحصينة!!؛ فالحصون تحتاج إلى رجال، ولكن ندر الرجال في ذلك الزمن!..

من على رأس الدولة في الخلافة العباسية؟

العراق في فارس وأذربيجان؟ ألم يكن في مذهب السلف وحدة وألفة وترابط؟..

لقد كان المستعصم جيدًا في حياته الشخصية؛ لكنه افتقر إلى أمور لا يصح أن يفتقر إليها حاكم مسلم..

- لقد افتقر إلى القدرة على إدارة الأمور والأزمات..
- وافتقر إلى كفاءة القيادة..
- وافتقر إلى علو الهمة، والأمل في سيادة الأرض والنصر على الأعداء ونشر دين الله..
- وافتقر إلى الشجاعة التي تمكنه من أخذ قرار الحرب في الوقت المناسب..
- وافتقر إلى القدرة على تجميع الصفوف وتوحيد القلوب ونبذ الفرقة ورفع راية الوحدة الإسلامية..
- وافتقر إلى حسن اختيار أعوانه؛ ففشت في بلاده بطانة السوء..

- وافتقر إلى محاربة الفساد، فعم الفساد وطغى، وكثرت الاختلاسات من أموال الدولة، وعمت الرشاوي، وطغت الوساطة..

نعم كان الخليفة جيدًا في أداء شعائر الدين من صلاة وصيام وزكاة.. ونعم كان لسانه نظيفًا.. ونعم كان محبًا للفقراء والعلماء.. كل ذلك جميل في مسئوليته أمام نفسه، لكن أين مسئوليته أمام مجتمعه وأمته؟ لقد ضعف الخليفة عن حمل مسئولية الشعب..

كان باستطاعة الخليفة أن يدبر من داخل العراق مائة وعشرون ألف فارس فضلاً عن المشاة والمتطوعين.. وكان الجيش التتري المحاصر لبغداد مائتي ألف مقاتل، وكان هناك أمل كبير في رد الغزاة، لكن الخليفة كان مهزومًا من داخله.. فاقدًا للروح التي تمكّن من المقاومة، لم يربِّ شعبه على الجهاد، ولم يعلمهم فنون القتال.. أين معسكرات التدريب التي تعد شباب الأمة ليوم كيوم التتار؟ أين الاهتمام بالسباحة والرماية وركوب الخيل؟ أين التجهيز المعنوي للأمة لتعيش حياة الجد والنضال؟

أنا لست متحاملاً على الخليفة!!..

لقد حكم هذا الخليفة بلاده ما يقرب من ستة عشر عامًا.. إنه لم يفاجأ بالحكم، ولم يأته الأمر على عجل، ولقد رُبِّيَ ليكون خليفة، وتولى الحكم وهو في سن الواحدة والثلاثين وهو شاب ناضج واع فاهم، وأعطي الفرصة كاملة لإدارة البلاد (ستة عشر عامًا كاملة) فإن كان كفئًا فكان عليه أن يعد العدة, ويقوي من شأن البلاد, ويرفع من هيبتها، ويعلي من شأنها، ويجهز جيشها , ويعز رأيها.. وإن كان غير ذلك فكان عليه -إن كان صادقًا- أن يتنحى عن الحكم، ويترك الأمر لمن يستطيع؛ فهي ليست مسئولية أسرة أو قبيلة؛ إنما هي مسئولية أمة، وأمة عظيمة وكبيرة وجليلة، أمة هي خير أمة أخرجت للناس..

لكن الخليفة لم يفعل أيًا من الأمرين؛ لا قام بالإعداد، ولا قام بالتنحي؛ فكان لابد أن يدفع الثمن، وكان لابد لشعبه أن يدفع الثمن معه.. وعلى قدر عظم الأمانة التي ضاعت، سيكون الثمن الذي يدفعه الخليفة ومعه الشعب.. وسترون كيف كان الثمن باهظًا!!..

خزائن الدولة كانت ملأى بالسلاح؛ لكنه إما سلاح قديم بالٍ عفا عليه الزمان، وأكل عليه الدهر وشرب، وإما سلاح جديد عظيم.. ولكن للأسف لم يتدرب عليه أحد.. والنتيجة: جيش الخلافة العباسية جيش هزيل ضعيف لا يصلح أن يكون جيشاً لإمارة صغيرة فضلاً عن الخلافة..

والشعب في بغداد؟ كيف كانت طبيعته؟ وكيف كانت طموحاته؟

لا تتوقعوا أنه شعب قد ظلم بخليفة ضعيف أو هزيل؛ فالحكام إفراز طبيعي جدًا للشعوب: "**كما تكونون يولَّ عليكم**"..

الشعب في بغداد آنذاك كان شعبًا كبيرًا ضخمًا (ثلاثة ملايين على الأقل) وبذلك تعد بغداد أكثر مدن العالم ازدحامًا في ذلك الوقت، هذا غير السكان في المدن والقرى المحيطة؛ فلم تكن تنقصهم الطاقة البشرية، ولكنهم كانوا شعبًا مترفًا أَلِف حياة الدّعة والهدوء والراحة، والملتزم فيهم بدينه اكتفى بتحصيل العلم وحضور الصلوات في المساجد وقراءة القرآن، ونسى الفريضة التي جعلها رسول الله ρ ذروة سنام الإسلام؛ وهي فريضة الجهاد، وغير الملتزم منهم بدينه -وهم كثير- عاشوا لشهواتهم وملذاتهم، وتنافسوا في ألوان الطعام والثياب، وفي أعداد الجواري والغلمان، وفي أنواع الديار والحدائق والبساتين ومنهم من التهى بسماع الأغاني والألحان عن سماع القرآن والحديث، ومنهم من شرب الخمر، ومنهم من سرق المال، ومنهم من ظلم العباد.. وظلوا قرابة الخمسين سنة يسمعون عن المذابح التي تتم في إخوانهم المسلمين في أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وفارس وأذربيجان

والشيشان.. لقد سمعوا عن خطف الأطفال ولم يتحركوا، وسمعوا عن اغتصاب بنات المسلمين ولم يتحركوا، وسمعوا عن سرقة الأموال وتدمير الديار وحرق المساجد ولم يتحركوا، بل سمعوا أن خليفتهم الناصر لدين الله جد المستعصم بالله كان يساعد التتار ضد المسلمين الخوارزمية ولم يتحركوا..

سمعوا بكل ذلك وأضعافه ولم يتحركوا!!.. فلابد أن يكون الجزاء من جنس العمل.. "**كما تدين تدان**".. سيأتي يوم يفعل في هذا الشعب كل ما كان يفعل في الشعوب المسلمة الأخرى ولن يتحرك له أحد من المسلمين، بل سيساعدون التتار عليهم.. هكذا تدور الدوائر.. "**كما تدين تدان**"..

ولا يقولن قائل إن الشعب مغلوب على أمره؛ فالشعوب التي تقبل بكل هذا الانحراف عن نهج الشريعة شعوب لا تستحق الحياة.. أين العلماء؟ وأين الرجال؟ وأين الشباب؟ وأين المجاهدون؟ أين الآمرون بالمعروف وأين الناهون عن المنكر؟ أين الحركات الإصلاحية في هذا المجتمع الفاسد؟ **أليس منكم رجل رشيد؟!**

على كل حال كان هذا هو الوضع في بغداد!!.. وبينما هم على هذه الحالة المخزية؛ إذ ظهر فجأة جيش "هولاكو" قبالة الأسوار الشرقية للمدينة العظيمة "بغداد"، وكان ذلك في يوم **١٢** محرم من سنة **٦٥٦** هجرية.. وبدأ "هولاكو" في نصب معدات الحصار الثقيلة حول المدينة، وجاء كذلك "كتبغا" بالجناح الأيسر من الجيش ليحيط بالمدينة من الناحية الجنوبية الشرقية..

وارتاع خليفة المسلمين.. وعقد اجتماعًا عاجلاً طارئًا جمع فيه كبار مستشاريه وعلى رأسهم الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمي.. ماذا نفعل في هذه المصيبة؟ أين المهرب؟ " **فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ** " سورة ص آية ٣!!..

وبطبيعة الحال؛ فإن مؤيد الدين العلقمي وبطانته كانوا يؤيدون مهادنة التتار وإقامة مباحثات سلام معهم، ولا مانع من بعض التنازلات، أو كثير من التنازلات، وهكذا كان مؤيد الدين يوسع الفجوة جدًا بين إمكانيات التتار وإمكانيات المسلمين؛ فلا يبقى هناك أمل في المقاومة.. كان هذا هو الرأي السائد في الاجتماع..

لكن الخير لا ينعدم في هذه الأمة.. لقد قام رجلان من الوزراء وأشارا على الخليفة بحتمية الجهاد.. قام "**مجاهد الدين أيبك**" و"**سليمان شاه**" يحضان على المقاومة.. نعم جاءت الإشارة متأخرة.. بل متأخرة جدًا؛ لأن زمن الإعداد انتهى، وحان وقت الاختبار، ولكن لعلهما كان يشيران منذ فترة بأمر الجهاد ولا يُسمع لهما..

واحتار الخليفة!!..

هواه مع كلام مؤيد الدين العلقمي؛ فقلبه لا يقوى على الحروب، وعقله مع كلام مجاهد الدين أيبك؛ لأن تاريخ التتار لا يشير بأي فرصة للسلام.. ثم استقر الخليفة!.. والحمد لله.. لقد استمع لكلام العقل وقرر أن يجاهد!!.. لكنه متردد ضعيف لين، والجهاد لا ينفع مع هذه الصفات!!.. الجهاد ليس قرارًا عشوائيًا.. لا يوجد مجاهد "بالصدفة"!!..

الجهاد إعداد، وتربية، وتضحية، ومشوار طويل في طريق الإيمان.. الجهاد ارتقاء إلى أعلى، إلى أعلى، إلى أعلى.. إلى أن تصل إلى ذروة سنام الإسلام.. ولكن على كل حال.. "فلنجاهد" (على سبيل التجربة!).. سمح الخليفة للمرة الأولى تقريبًا في حياته باستخدام الجيش..

وخرجت فرقة هزيلة من الجيش العباسي يقودها "**مجاهد الدين أيبك**" لتلاقي جيش "هولاكو" المهول.. وبمجرد خروج الجيش العباسي واستعداده لملاقاة "هولاكو" جاءت الأخبار إلى "مجاهد الدين أيبك" أن هناك جيشًا تتريًا

آخر يأتي من جهة الشمال؛ وهو جيش "بيجو" القادم من أوروبا عبر أراضي تركيا وشمال العراق.

وأدرك "مجاهد الدين أيبك" أن هذا الجيش لو وصل إلى بغداد فسوف يطوقها من الناحية الشمالية والغربية؛ وبذلك سيطبق الحصار تمامًا على العاصمة الإسلامية، ومن هنا فكر "مجاهد الدين أيبك" بسرعة أن يتجه بجيشه شمالاً بين نهري دجلة والفرات لمقابلة جيش "بيجو"، والتقى فعلاً بجيش التتار عند منطقة "الأنبار"؛ وهي المنطقة التي شهدت انتصارًا خالدًا قبل ذلك بأكثر من ستمائة سنة على يد البطل الخالد "خالد بن الوليد" رضي الله عنه.

ولكن في هذه المرة لم يكن الانتصار حليف المسلمين؛ فقد بدا "بيجو" وكأنه أعرف بالمنطقة من أهلها، وبدأ يُظهر الانسحاب، ويستدرج خلفه جيش المسلمين؛ حتى أتى به إلى و"بيجو" من الغرب.. وازدادت حراجة الموقف!..

والخليفة -ابن الخلفاء والسلاطين- ما تخيل أنه يُحاصر هذا الحصار أبدًا، وشُل عقله تمامًا عن التفكير!!.. وجاء مؤيد الدين العلقمي ليستغل الفرصة!!.. أيها الخليفة.. لابد أن نجلس مع التتار على طاولة المفاوضات!!..

والخليفة يدرك أنه إذا جلس قوي شديد القوة مع ضعيف شديد الضعف؛ فإن هذا لا يعني مفاوضات أبدًا، وإنما يعني استسلامًا.. وفي الاستسلام عادة ما يقبل المهزوم بشروط المنتصر دون تعديل؛ ومع ذلك وافق الخليفة -وهو مطأطِئ الرأس- على الاستسلام؛ أقصد على "المفاوضات".. وقرر أن يرسل رجلين ليقوما عنه بالمفاوضات.. فمن أرسل؟!

لقد أرسل مؤيد الدين العلقمي الشيعي والذي يُكنّ كل الحقد والغل للخلافة العباسية!!.. وأرسل معه "ماكيكا".. البطريرك النصراني في بغداد!!!!.. وهكذا فالوفد الممثل للخلافة الإسلامية العباسية في المفاوضات مع التتار لا يضم إلا رجلين: أحدهما شيعي والآخر نصراني!!!.. ولا تعليق!!!!..

منطقة مستنقعات قريبة من نهر الفرات، ثم أرسل المهندسين التتر لقطع السدود المقامة على نهر الفرات في هذه المنطقة ليقطع خط الهروب على الجيش العباسي، وتم حصار الجيش العراقي، وبدأت عملية إبادة واسعة النطاق، واستطاع **"مجاهد الدين أيبك"** بفرقة صغيرة جدًا من الجيش العباسي أن ينسحب بحذاء النهر جنوبًا حتى عاد إلى بغداد، أما معظم الجيش العباسي فقد هلك في منطقة الأنبار.

تمت هذه الموقعة في **التاسع عشر من المحرم** بعد أسبوع من ظهور "هولاكو" أمام الأسوار الشرقية لبغداد، وتقدم "بيجو" مباشرة ولم يضيِّع وقتًا حتى وصل إلى بغداد من ناحيتها الشمالية في اليوم التالي مباشرة، ثم التف حول بغداد ليضرب عليها الحصار من جهتها الغربية؛ وبذلك وُضعت بغداد بين فكي كماشة: "هولاكو" من الشرق،

ودارت المفاوضات السرية جدًا بين "هولاكو" وبين ممثلي الخلافة العباسية.. وأعطيت الوعود الفخمة من "هولاكو" لكليهما إن ساعداه على إسقاط بغداد.. وبالطبع كان رد فعل ممثلي الخلافة العباسية معروفًا.. إن كليهما يتحرق شوقًا لإسقاط الخلافة العباسية ولو بدون ثمن، فما بالك لو كانت هناك وعود فخمة بمناصب وسيطرة وأموال.. ومن الذي يعد؟ إنه "هولاكو" سيد الموقف في كل المنطقة..

وعاد المبعوثان الساميان من عند "هولاكو" إلى الخليفة يحملان له طلبًا عجيبًا من الزعيم التتري.. لقد سمع "هولاكو" بأمر المسلمين **"المتطرفين"** في داخل بغداد الذين ينادون بشئ خطير.. إنهم ينادون **"بالجهاد"**؛ وهذه الدعوة إلى الجهاد ستنسف كل **مباحثات "للسلام"**.. فعلى خليفة المسلمين أن يسلم إلى "هولاكو" **رؤوس الحركة الإسلامية في بغداد**.. عليه أن يسلم "مجاهد الدين أيبك" و"سليمان شاه" اللذين كانا يتزعمان فكرة الجهاد والمقاومة!!.. وهنا تتضارب الروايات، ولا ندري إن كان سلمهما فعلاً أم لم يسلمهما،

لكن وضح الغرض التتري، ورغبة أعداء الإسلام دائمًا في كتم أي دعوة للمقاومة باسم الدين..

والموقف يزداد صعوبة، والأزمة تزداد شدة، والرسل لا تنقطع بين "هولاكو" والخليفة.. والرسل طبعًا هم أهل الثقة عند الخليفة: مؤيد الدين العلقمي، والبطريرك النصراني ماكيكا!!..

وجاءت نتائج المفاوضات "مرضية جدًا" كما صور ابن العلقمي للخليفة.. لقد جاء ابن العلقمي ببعض الوعود من "هولاكو"، واعتبر هذه الوعود نصرًا سياسيًا كبيرًا، وفي نفس الوقت كانت هناك بعض الشروط "البسيطة" على الخليفة أن ينفذها..

أما الوعود فهي:

مراقبة تترية..

وختم "هولاكو" مباحثاته مع المبعوثين الساميين بأنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا لإرساء قواعد العدل والحرية والأمان!!.. وبمجرد أن تستقر هذه الأمور –وفق الرؤية التترية– فإنه سيعود إلى بلاده ويترك العراقيين يديرون شئون بلدهم!!..

وتجددت الآمال في نفس الخليفة!!.. لكنه متحير.. هل يصدق "هولاكو" في وعوده؟ هناك شك كبير في قلبه.. لكن الشروط قاسية، فهو سيتخلص من كل إمكانية للمقاومة.. غير أنه وُعد أنه سيظل حاكمًا البلاد.. نعم تحت رعاية تترية.. لكنه في النهاية سيظل جالسًا على كرسي الحكم.. ثم إنه لو رفض التسليم, وفتحت بغداد بالقوة فإنه حتمًا سيموت.. وإذا سلم نفسه إلى "هولاكو" فهناك احتمال –ولو بسيط– للنجاة بالروح!..

نعم سيعيش ذليلاً.. ولكنه في النهاية قد يعيش!.. نعم سيعيش وضيعًا.. لكنه في النهاية قد يعيش!.. نعم سيبيع كل شيء بثمن بخس.. لكنه في النهاية قد يعيش!..

١– إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وإقامة علاقة سلام دائم..

٢– يتم زواج ابنة "هولاكو" الزعيم التتري الذي سفك دماء الملايين من المسلمين بابن الخليفة المسلم "المستعصم بالله".

٣– يبقى "المستعصم بالله" على كرسي الحكم..

٤– يعطي الأمان لأهل بغداد جميعًا..

وأما الشروط فهي:

١– تدمير الحصون العراقية..

٢–ردم الخنادق..

٣– تسليم الأسلحة..

٤– الموافقة على أن يكون حكم بغداد تحت رعاية أو

والخليفة ما زال مترددًا.. والشعب الضخم من ورائه يعيش نفس التردد..

نداء الجهاد لا ينبعث إلا من بعض الأفواه القليلة جدًا.. أما عامة الناس فقد انخلعت قلوبهم لحصار التتار.. لقد عظمت الدنيا جدًا في عيونهم.. فاستحال عليهم أن يضحوا بها.. لقد كثر الخبث في بغداد.. وإذا كثر الخبث فالهلكة قريبة!!..

واحتاج الخليفة لبعض الوقت للتفكير؛ فالقرار صعب، ويحتاج إلى الاستشارة وقد يستخير!! لكن "هولاكو" ليس عنده وقت يضيعه.. الجيوش الرابضة حول بغداد تتكلف كل يوم آلاف الدنانير.. والحصار في شهر محرم سنة **٦٥٦** هجرية، وهذا يوافق شهر يناير من سنة **١٢٥٨** ميلادية.. والجو بارد.. هذا فوق أنه يتشوق لرؤية بغداد الجميلة من الداخل..

لم ينتظر "هولاكو" وقتًا طويلاً.. ولم يعطِ "لصديقه" الخليفة ما يريده من الوقت للتفكير، ولكنه قرر أن يجبره على سرعة التفكير، وذلك عن طريق بدء إطلاق القذائف على بغداد..

وبدأ القصف التتري المروع لأسوار وحصون بغداد، وبدأت المدينة الآمنة تروع للمرة الأولى تقريبًا في تاريخها..

بدأ القصف التتري في الأول من صفر سنة **٦٥٦** هجرية , واستمر أربعة أيام متصلة.. ويذكر ابن كثير –رحمه الله– (في البداية والنهاية) موقفًا بسيطًا لا يعلق عليه، ولكنه حمل بالنسبة لي معانيَ كثيرة..

يقول ابن كثير: **"وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب؛ حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت تسمى "عرفة"، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي "ترقص بين يدي الخليفة" فانزعج الخليفة، وفزع فزعًا شديدًا، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه؛ فإذا عليه مكتوب: *"إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوي العقول عقولهم"*؛ فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز , وكثرت الستائر على دار الخلافة!!"**..

وعجيب أن يذكر ابن كثير هذا الخبر دون تعليق!!.. والحدث وإن كان ظاهره بسيطًا عابرًا، إلا أنه يحمل معانيَ هائلة.. لقد تمكَّنت الدنيا تمامًا من قلوب الناس في بغداد، وأولهم الخليفة.. ها هو الخليفة الموكل إليه حماية هذه الأمة في هذا الموقف الخطير يسهر هذه السهرة اللاهية.. *(وهكذا يسهر الزعماء المستهترون في ليالي الانتكاسات!)* نعم الجارية مِلك يمينه، وهي حلال له.. لكن أين العقل في رأس الخليفة؟!.. العاصمة الإسلامية للخلافة محاصرة، والموت على بُعد خطوات، والمدفعية المغولية تقصف، والسهام النارية تحرق، والناس في ضنك شديد، والخليفة يستمتع برقص الجواري!!..

أين العقل؟ وأين الحكمة؟!.. لقد أصبح رقص الجواري في الدماء فصار كالطعام والشراب.. لابد منه حتى في وقت الحروب!!..

وما أبلغ العبارة التي كتبها التتار على السهم الذي أطلق على دار الخلافة وقتل الراقصة إذ قالوا: ***"إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوي العقول عقولهم"***؛ فالله عز وجل قد قضى على بغداد بالهلكة في ذلك الوقت، وأذهب فعلاً عقول الخليفة وأعوانه وشعبه، ولا شك أن هذه العبارات المنتقاة بدقة كانت نوعًا من الحرب النفسية المدروسة التي يمارسها التتار على أهل بغداد..

ويكفي كدليل على قلة عقل الخليفة أنه بعد هذه "الكارثة" (كارثة قتل الراقصة!) لم يأمر الشعب بالتجهز للقتال –فقد وصل الخطر إلى داخل دار الخلافة– وإنما أمر بزيادة الاحتراز؛ ولذلك كثرت الستائر حول دار الخلافة لحجب الرؤية ولزيادة الوقاية!.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

وظل التتار على قصفهم مدة أربعة أيام؛ من أول صفر إلى الرابع من صفر سنة ٦٥٦ هجرية، وفي يوم الرابع من صفر بدأت الأسوار الشرقية تنهار.. ومع انهيار الأسوار الشرقية انهار الخليفة تمامًا؛ فقد بقيت لحظات قليلة جدًا في العمر.. وهنا لجأ الخليفة إلى صديقه الخائن مؤيد الدين العلقمي وسأله ماذا يفعل؟ فأشار عليه الوزير أن يخرج لمقابلة "هولاكو" بنفسه لكي يجري معه المفاوضات..

وذهبت الرسل إلى "هولاكو" تخبره بقدوم الخليفة؛ فأمر "هولاكو" أن يأتي الخليفة ومعه كبار رجال دولته وفقهاء المدينة وعلماء الإسلام وأمراء الناس والأعيان حتى يحضروا جميعًا العقد؛ وبذلك يصبح العقد –كما يقول "هولاكو"– ملزمًا للجميع.. ولم يكن أمام الخليفة الضعيف أي رأي آخر.. فجمع كبار قومه وخرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة "هولاكو" خارج الأسوار الشرقية لبغداد.. خرج وقد تحجرت الدموع في عينيه، وتجمدت الدماء في عروقه، وتسارعت ضربات قلبه وتلاحقت أنفاسه.. لقد خرج ذليلاً مهينًا وهو الذي كان يستقبل في قصره وفود الأمراء والملوك، وكان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا من تلك الدار التي خرج منها الخليفة الآن..

وكان الوفد كبيرًا يضم سبعمائة من أكابر بغداد وكان فيه بالطبع مؤيد الدين العلقمي واقترب الوفد من خيمة "هولاكو"، وقبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس التتري، ولم يسمحوا لكل الوفد بالدخول على "هولاكو"، بل يدخل الخليفة ومعه سبعة عشر رجلاً فقط، أما الباقي فسيخضع للتفتيش الدقيق.. ودخل الخليفة ومعه رجاله، وحجب بقية الوفد.. ولكنهم لم يخضعوا للتفتيش بل أُخذوا جميعًا.... للقتل!!!..

قتل الوفد بكامله إلا الخليفة والذين كانوا معه.. قتل كبراء القوم ووزراء الخلافة وأعيان البلد وأصحاب الرأي.. ولم يقتل الخليفة؛ لأن "هولاكو" كان يريد استخدامه في أشياء أخرى..

وبدأ هلاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر.. واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله!.. اكتشف الخليفة ما كان واضحًا لكل الخلق.. ولكنه لم يره إلا الآن.. لقد اكتشف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان كما قال تعالى: "**لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً**"- سورة التوبة, آية ١٠ .. واكتشف أيضًا أن الحق لابد له من قوة تحميه.. فإن تركت حقك دون حماية فلا تلومن إلا نفسك.. لكن هذا الاكتشاف جاء متأخرًا جدًا..

وبدأت الأوامر الصارمة تخرج من السفاح "هولاكو":

١- على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح.. وقد كان أمرًا سهلاً لأن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلاً!..

٢- يقيد الخليفة ويساق إلى المدينة يرسف في أغلاله لكي يدل التتار على كنوز العباسيين وعلى أماكن الذهب والفضة والتحف الثمينة، وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال..

٣- يتم قتل ولدي الخليفة الأكبر أحمد أبي العباس والأوسط عبد الرحمن أبي الفضائل، ويؤسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما تؤسر أخوات الخليفة الثلاث فاطمة وخديجة ومريم..

٤- يستدعى من بغداد بعض الرجال بعينهم، وهؤلاء هم الرجال الذين ذكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السُّنة، وبالفعل تم استدعاؤهم؛ فكان الرجل منهم يخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيذهب إلى مكان عينه التتار بجوار المقابر فيذُبح كما تذبح الشياه وتؤخذ نساؤه وأولاده؛ فذُبح على هذه الصورة **أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي** (العالم الإسلامي المعروف)، وذُبح أولاده الثلاثة عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وذُبح المجاهد **مجاهد الدين أيبك وزميله سليمان شاه** وهما اللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، وذُبح **شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة ومربِّيه صدر الدين علي بن النيار**، ثم ذُبح بعد هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن!!!..

كل هذا والخليفة حي يشاهد، وقد رأى أن "هولاكو" يتعامل تعاملاً وديًا مع ابن العلقمي الوزير الخائن، وأدرك العلاقة بينهما، ولكن كان هذا الإدراك متأخرًا جدًا..

وبعد أن قُتلت هذه الصفوة، وبعد أن انساب جند "هولاكو" إلى شوارع بغداد ومحاورها المختلفة.. أصدر السفاح "هولاكو" أمره الشنيع باستباحة عاصمة الخلافة الإسلامية.. والأمر بالاستباحة يعني أن الجيش يفعل فيها ما يشاء.. يقتل.. يأسر.. يسبي.. يرتكب الفواحش.. يسرق.. يدمر.. يحرق.. كل ما بدا لهؤلاء الهمج أن يفعلوه فليفعلوه!!..

وانطلقت وحوش التتار الهمجية تنهش في أجساد المسلمين.. واستبيحت مدينة بغداد العظيمة.. اللهم لا حول ولا قوة إلا بك!!

كم من الجيوش خرجت لتجاهد في سبيل الله من هذه المدينة!!.. كم من العلماء جلسوا يفقهون الناس في دينهم في هذه المدينة!!.. كم من طلاب العلم شدوا الرحال إلى هذه المدينة!!..

أواه يا بغداد! .. لم يبق لك أحد!..

أين خالد بن الوليد؟ .. أين المثنى بن حارثة؟.. أين القعقاع بن عمرو؟.. أين النعمان بن مقرن؟.. أين سعد بن أبي وقاص؟

أين الحمية في صدور الرجال؟.. أين النخوة في أبناء المسلمين؟.. أين العزة والكرامة؟.. أين الذين يطلبون الجنة؟.. مدينة المعتصم فاتح عمورية ببلاد الروم.. استبيحت عاصمة الإسلام أكثر من خمسة قرون..

وفعل التتار في المدينة ما لا يتخيله عقل!!..

بدأ التتار يتعقبون المسلمين في كل شارع أو ميدان.. في كل بيت أو دار.. في كل مسجد أو مكتبة.. واستحر القتل في المسلمين.. كان المسلمون يغلقون على أنفسهم الأبواب، فيحرق التتار الباب أو يقتلعونه، ويدخلون عليهم، فيهرب المسلمون إلى أسطح الديار فيصعد وراءهم التتار ويقتلونهم على الأسطح؛ حتى سالت الدماء بكثرة من ميازيب المدينة!..

ولم يقتل التتار الرجال الأقوياء فقط.. إنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء إلا ما استحسنوا منهن فقد أخذوهن سبياً.. بل وكانوا يقتلون الأطفال.. بل كانوا يقتلون الرُّضع.. وجد جندي من التتار أربعين طفلاً حديثي الولادة في أحد الشوارع وقد قُتلت أمهاتهم فقتلهم جميعًا! .. **قلوب كالحجارة.. أو أشد قسوة!!..**

وتزايد عدد القتلى في المدينة بشكل بشع.. ومر اليوم الأول والثاني والثالث.. والعاشر.. والقتل لا يتوقف، والإبادة أين الذين يقاتلون في سبيل الله؟.. بل أين الذين يدافعون عن أعراضهم ونسائهم وأولادهم وديارهم وأموالهم؟!....أين؟!!!

لا أحد..

فتحت بغداد أبوابها على مصراعيها.. لا مقاومة.. لا حراك.. لم يبق في بغداد رجال.. ولكن فقط أشباه رجال.. استبيحت المدينة العظيمة بغداد.. استبيحت مدينة الإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل.. استبيحت مدينة الرشيد الذي كان يحج عامًا ويجاهد عامًا.. استبيحت

لا تنتهي.. ولا دفاع.. ولا مقاومة؛ فقد دخل في روع الناس أن التتار لا يُهزمون.. ولا يُجرحون.. بل لا يموتون!

كل هذا والخليفة يشاهد.. وهذا هو العذاب بعينه.. هل تتخيلون الخليفة وهو يشاهد هذه الأحداث؟!.. هل تتخيلون الخليفة ابن الخلفاء.. العظيم ابن العظماء.. وهو يقف يشاهد هذه المآسي؟! قُتل ولدان من أولاده.. أُسر ابنه الثالث.. وأُسرت أخواته الثلاث.. قُتل كل وزرائه باستثناء مؤيد الدين العلقمي الشيعي.. قتل كل علماء بلده وخطباء مساجده وحملة القرآن في مدينته.. دُمر جيشه بكامله.. نُهبت أمواله وثرواته وكنوزه ومدخراته.. استبُيحت مدينته وقُتل من شعبه عشرات الآلاف أمام عينه.. أُحرقت العاصمة العظيمة لبلده، ودمرت مبانيها الجميلة.. انتشر التتار بوجوههم القبيحة الكافرة في كل بقعة من بقاع بغداد.. كالجراد الذي غطى الأرض الخضراء فتركها قاعًا صفصفًا.. وُضعت الأغلال في عنقه وفي يده وفي قدمه.. وسيق كما تساق البعير.. شاهد كل ذلك بعينه..

وتخيل مدى الحسرة والألم في قلبه.. لا شك أنه قال مرارًا : "**يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا**".. لا شك أنه نادم.. "**ما أغنى عني ماليه.. هلك عني سلطانيه**".. ومر على ذهنه شريط حياته في لحظات.. ولا شك أنه أخذ

يراجع نفسه ولسان حاله يقول: "**رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت**".. يا ليتني جهزت الجيوش وأعددتها وقويتها!!..

يا ليتني حفزت الأمة على الجهاد في وقت أحيطت هذه الأمة فيه بأعداء الدين من كل مكان.. يا ليتني رفعت قيمة الإسلام في عيون الناس وفي قلوبهم حتى يصبح عندهم أغلى من أموالهم وحياتهم.. يا ليتني تركت اللهو واللعب والحفلات والتفاهات.. ليتني ما عشت لجمع المال.. ليتني ما استكثرت من الجواري.. ليتني ما سمعت المعازف.. ليتني اخترت بطانة الخير.. ليتني عظمت من العلماء وتركت الأدعياء.. ليتني .. ليتني .. ليتني..

لقد عمل أهل بغداد في الزراعة والتجارة والكتابة والصناعة.. بل وفي العلم والتعلم. وتركوا الجهاد.. فكانت النتيجة هذا الذل الذي رأيناه.. وهذه دروس إلى كل مسلم.. حاكم أو محكوم.. عالم أو متعلم.. كبير أو صغير.. رجل أو امرأة..

- لابد للحق من قوة تحميه..
- الحقوق لا تُستجدى ولكن تؤخذ.. ويبذل في سبيلها الغالي والثمين..
- ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا..

وسيق الخليفة "المستعصم بالله" إلى خاتمته.. بعد أن رأى كل ذلك في عاصمته, وفي عقر دار خلافته, بل في عقر دار بيته.. وأصدر السفاح "هولاكو" الأمر بالإجهاز على الخليفة المسكين.. وأشار على "هولاكو" بعض أعوانه أنه لو سالت دماء الخليفة على الأرض فإن المسلمين سيطلبون ثأره ولو تقادم الزمان؛ فليقتله بوسيلة لا تسيل فيها الدماء، ولا داعي لاستعمال السيف.. وهذا بالطبع نوع من الدَّجَل؛ فمن المفروض أن يطلب المسلمون دم خليفتهم ودماء المسلمين جميعًا الذين قتلهم "هولاكو" بصرف النظر عن طريقة قتلهم.. لكن "هولاكو" استمع لهم.. وكأن الله (عز وجل) قد أراد ذلك حتى يموت الخليفة بصورة مخزية ما حدثت مع خليفة قبله، وما سمعنا بها مع أي من ملوك أو أمراء الأرض.. مسلمين كانوا أو غير مسلمين..

لكن القيود الثقيلة ردته إلى أرض الواقع.. ليعلم أن الزمان لا يعود أبدًا إلى الوراء..

روى أبو داود وأحمد عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ρ قال: "**إذا تبايعتم بالعينة** (نوع من الربا)، **وأخذتم أذناب البقر** (العمل في رعي المواشي)، **ورضيتم بالزرع** (رضيتم بالاشتغال في الزراعة، والمقصود عملتم في أعمال الدنيا أيًا كانت في وقت الجهاد المتعين) **وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**"..

لقد أمر "هولاكو" أن يقتل الخليفة "رفسًا بالأقدام"!!!..

وبالفعل وضع الخليفة العباسي على الأرض، وبدأ التتار يرفسونه بأقدامهم!!..

وتخيل الرفس والركل بالأقدام إلى الموت!!.. أي ألم.. وأي إهانة.. وأي ذل!!.. وظلوا يرفسونه إلى أن فارقت روحه الجسد.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.. سقط آخر خلفاء بني العباس في بغداد.. وسقط شعبه.. وسقطت مدينته.. كان ذلك في اليوم **العاشر** من فتح بغداد لأبوابها.. في يوم **١٤** صفر سنة **٦٥٦** هجرية..

ولم تنته المأساة بقتل الخليفة.. وإنما أمر "هولاكو" – لعنه الله– باستمرار عملية القتل في بغداد؛ فهذه أضخم مدينة على وجه الأرض في ذلك الزمان.. ولابد أن تكون عبرة لمن

بعدها.. واستمر القتل في المدينة **أربعين يومًا** كاملة منذ سقوطها..

كم قُتل في بغداد من المسلمين؟!.. لقد قتل هناك.. ألف ألف مسلم!!.. (مليون مسلم) ما بين رجال ونساء وأطفال!!!.. ألف ألف مسلم قتلوا في أربعين يومًا فقط!!.. تخيل أمة فقدت من أهلها مليونًا في غضون أربعين يومًا فقط!!.. كارثة رهيبة!.. ولم يستثن من القتل في بغداد إلا الجالية النصرانية فقط!..

وبينما كان فريق من التتار يعمل على قتل المسلمين وسفك الدماء.. اتجه فريق آخر من التتار لعمل إجرامي آخر.. ليس له مبرر إلا أن التتار قد أكل الحقد قلوبهم لكل ما هو حضاري في بلاد المسلمين.. لقد شعر التتار بالفجوة الحضارية الهائلة بينهم وبين المسلمين؛ فالمسلمون لهم باع طويل في العلم والدراسة والأخلاق.. والمسلمون عندهم عشرات الآلاف من العلماء الأجلاّء في كافة فروع العلم؛ الديني منها والدنيوي.. أثروا الحضارة الإسلامية بملايين المصنَّفات.. والتتار لا حضارة لهم.. ولا أصل لهم.. أمة لقيطة.. نشأت في صحراء شمال الصين واعتمدت على شريعة الغاب في نشأتها.. وقاتلت كما تقاتل الحيوانات.. ولم ترغب مطلقًا في إعمار الأرض أو إصلاح الدنيا.. إنما حياتهم التخريب والتدمير والإبادة..

اتجه فريق من التتار لعمل إجرامي بشع؛ وهو **تدمير مكتبة بغداد العظيمة**.. أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن.. الدار التي تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام.. جمعت فيها كل العلوم الشرعية والآداب والفنون وكذلك العلوم الدنيوية كالطب والفلك والكيمياء والفيزياء والجغرافيا والتاريخ وغير ذلك.. مكتبة عظيمة بكل المقاييس.. مكتبة جمعت كل علوم الأرض في زمانها.. ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة في الأندلس.. **وسبحان الله!**.. لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد.. فعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هجرية قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط قاموا بحرق مكتبة قرطبة.. وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه، وكان اسمه **"كمبيس"**، وحرق كل ما وقعت عليه يده من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأُنفق في سبيل كتابتها المال والعرق والجهد.. لكن هذه سُنتهم.. حرب على الحضارة، وحرب على المدنيَّة، وحرب على الإسلام..

ماذا فعل التتار مع مكتبة بغداد الهائلة؟

لقد حمل التتار الكتب الثمينة.. ملايين الكتب الثمينة. وألقوا بها جميعًا في نهر دجلة!!!!..

لقد كان الظن أن تحمل هذه الكتب إلى **قراقورم** عاصمة المغول ليستفيد التتار –وهم لا يزالون في مرحلة الطفولة الحضارية– من هذا العلم النفيس.. لكن التتار أمة همجية.. لا تقرأ ولا تريد أن تتعلم.. يعيشون للشهوات والملذات فقط.. هدفهم تخريب الدنيا وليس إعمار الدنيا..

ألقى التتار بمجهود القرون الخمسة الماضية في نهر دجلة؛ حتى تحول لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب.. وحتى قيل إن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى!!.. جريمة ليست في حق المسلمين فقط.. بل في حق الإنسانية كلها.. وهي – كما ذكرنا– جريمة متكررة في التاريخ.. فعلها الصليبيون النصارى في الأندلس في مكتبة قرطبة الهائلة.. وفعلها الصليبيون النصارى في الأندلس أيضًا في مكتبة غرناطة عند سقوطها فأحرقوا مليون كتاب في أحد الميادين العامة.. وفعلها الصليبيون النصارى في الشام في مكتبات طرابلس اللبنانية فأحرقوا ثلاثة ملايين كتاب.. وفعلها الصليبيون النصارى في فلسطين في مكتبات غزة والقدس وعسقلان..

ثم فعلها بعد ذلك المستعمرون الأوروبيون الجدد الذين نزلوا إلى بلاد العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، ولكن

هؤلاء كانوا أكثر ذكاء فإنهم سرقوا الكتب ولم يحرقوها ولكن أخذوها إلى أوروبا، وما زالت المكتبات الكبرى في أوروبا تحوي مجموعة من أعظم كتب العلم في الأرض.. ألفها المسلمون على مدار قرون متتالية.. ولا يشك أحد في أن أعداد الكتب الأصلية الإسلامية في مكتبات أوروبا تفوق كثيرًا أعداد هذه المراجع الهامة في بلاد المسلمين أنفسهم..

لقد كان من همِّ الغزاة على طول العصور أن يحرموا هذه الأمة من اتصالها بأي نوع من العلوم.. إما بحرق الكتب أو بتغريقها في الأنهار أو بسرقتها.. **أو حاليًا بتغيير مناهج التعليم حتى تفرغ من كل ما هو قيم وثمين**.. كل ذلك لأن الغزاة يعرفون جيدًا قيمة العلم في دين الإسلام.. وقوة المسلمين إذا ارتبطوا بالعلم..

نعود إلى التتار .. وإلى بغداد..

بعد أن فرغ التتار من تدمير مكتبة بغداد انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة؛ فتناولوها بالتدمير والحرق.. وما عجزوا عن حمله من المسروقات أحرقوه، وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى ركام، وإلى خراب تتصاعد منه ألسنة النار والدخان..

واستمر هذا الوضع أربعين يومًا كاملة.. وامتلأت شوارع بغداد بتلال الجثث المتعفنة، واكتست شوارع بغداد باللون الأحمر، وعم السكون البلدة فلا يسمع أحد إلا أصوات ضحكات التتار الماجنة.. أو أصوات بكاء بقايا النساء والأطفال بعد أن فقدوا كل شيء..

وهنا –وبعد الأربعين يومًا– خاف "هولاكو" على جيشه من انتشار الأوبئة نتيجة الجثث المتعفنة (مليون جثة لم تدفن بعد) فأصدر "هولاكو" بعض الأوامر الجديدة:

١- يخرج الجيش التتري بكامله من بغداد، وينتقل إلى بلد آخر في شمال العراق، وتترك حامية تترية صغيرة حول بغداد لكي لا يصاب الجيش بالأمراض والأوبئة.

٢- يعلن في بغداد أمان حقيقي؛ فلا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين يومًا.. وقد سمح بهذا الأمان حتى يخرج المسلمون من مخابئهم ليقوموا بدفن موتاهم.. وهذا عمل شاق جدًا يحتاج إلى فترات طويلة (مليون قتيل!!)، وإذا لم يتم هذا العمل فقد يتغير الجو في كل بلاد العراق والشام وتنتشر الأمراض القاتلة، والتي لن تفرق بين مسلم وتتري؛ ولذلك أراد "هولاكو" أن يتخلص من هذه الجثث بواسطة المسلمين.. وفعلاً خرج المسلمون الذين كانوا يختفون في الخنادق أو في المقابر أو في الآبار المهجورة، وقد تغيرت هيئتهم ونحلت أجسادهم وتبدلت ألوانهم حتى أنكر بعضهم بعضًا..

خرج كل واحد يفتش من الجثث ليستخرج ابنًا له أو أخًا أو أبًا أو أمًا!!.. وبدأوا في دفن الموتى.. ولكن كما توقع "هولاكو" انتشرت الأوبئة في بغداد بشكل مريع حتى مات من المسلمين عدد هائل من الأمراض القاتلة.. وكما يقول ابن كثير رحمه الله: "**ومن نجا من الطعن لم ينج من الطاعون!!**".. فكانت كارثة جديدة في بغداد.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

٣- أن يعين مؤيد الدين العلقمي الشيعي حاكمًا على بغداد من قبل التتار، وتوضع عليه وصاية تترية، ولم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للتتار بالطبع، بل إن الأمر تزايد بعد ذلك إلى الإهانة المباشرة لمؤيد الدين العلقمي، ومن صغار الجند في جيش التتار؛ وذلك لتكسر نفسيته ولا يشعر بقوته ويظل تابعًا للتتر.. وقد رأته امرأة مسلمة يركب على دابته، وأحد الجنود التتر ينتهره ليسرع بدابته، ويضرب دابته بالعصا (وضع مهين جدًا لحاكم بغداد الجديد)، فقالت له المرأة المسلمة: "**أهكذا كان بنو العباس يعاملونك؟!**"

لقد لفتت المرأة المسلمة نظر الوزير الخائن إلى ما فعله الوزير العميل في نفسه وفي شعبه؛ لقد كان الوزير معظمًا في

حكومة بني العباس، وكان مقدمًا على غيره، وكان مسموع الكلمة من كل إنسان في بغداد حتى الخليفة نفسه.. أما الآن فهو يهان من جندي تتري بسيط لا يعرف أحد اسمه، بل لعل "هولاكو" نفسه لا يعرفه.

وهكذا -يا إخواني- من باع دينه ووطنه ونفسه، فإنه يصبح بلا ثمن؛ فالعميل عند الأعداء لا يساوي عندهم أي قيمة إلا وقت الاحتياج، فإن تم لهم ما يريدون زالت قيمته بالكلية.. ووقعت كلمات المرأة المسلمة في نفس مؤيد الدين العلقمي، فانطلق إلى بيته، واعتكف فيه، وركبه الهم والغم.. لقد كان من أوائل الذين خسروا بدخول التتار.. نعم هو الآن حاكم بغداد.. لكنه حاكم بلا سلطة.. حاكم على مدينة مدمرة، وعلى الأموات والمرضى..

وبعد أيام من الضيق والكمد.. مات ابن العلقمي في بيته!!.. مات بعد شهور قليلة في نفس السَّنة التي دخل فيها التتار بغداد.. سنة **٦٥٦** هجرية.. ولم يستمتع بحكم ولا ملك ولا خيانة!؛ وليكون عبرة بعد ذلك لكل خائن.. **(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)**- سورة الحج, آية ١٠٢..

وولَّى التتار ابن مؤيد الدين العلقمي على بغداد؛ فالابن قد ورث الخيانة من أبيه.. لكن -سبحان الله- وكأن هذا المنصب أصبح شؤمًا على من يتولاه؛ فقد مات الابن بعد ذلك بقليل!.. في نفس السنة التي سقطت فيها بغداد سنة **٦٥٦** هجرية!!.. وهكذا ما تمسك أحد بالدنيا إلا وأهلكته.. تمسك بها الخليفة فهلك.. تمسك بها الوزير الخائن فهلك.. وتمسك بها ابن الوزير فهلك.. وتمسك بها شعب بغداد فهلك..

وصدق رسولنا الكريم ρ الذي قال -فيما رواه الترمذي وقال: صحيح، عن عمرو بن عوف رضي الله عنه- : **"فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم"**..

ووصلت أخبار سقوط بغداد إلى العالم..

أما العالم الإسلامي فكان سقوط بغداد بالنسبة له صدمة رهيبة لا يمكن استيعابها؛ فبغداد لم تكن مدينة عادية.. ففوق أنها أكبر مدينة على وجه الأرض في ذلك الحين، وفوق أن بها أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، وفوق أنها من أعظم دور العلم والحضارة في الأرض، وفوق أنها من ثغور الإسلام القديمة؛ فوق كل ذلك فهي **عاصمة الخلافة الإسلامية**..

ماذا يعني سقوط بغداد؟! تساءل الناس هذا السؤال الخطير؟

وماذا يعني قتل الخليفة، وعدم تعيين خليفة آخر؟ هذا سؤال آخر خطير أيضًا..

الدنيا لم تكن تعني للمسلمين شيئًا بدون خلافة وخليفة.. حتى مع مظاهر الضعف الواضحة في الخلافة العباسية، وحتى مع كونها لم تكن تسيطر حقيقة إلا على بغداد وأجزاء بسيطة من العراق فإن الخلافة كانت تعتبر رمزًا مهمًا للمسلمين.. إذا كانت هناك خلافة -ولو ضعيفة- فقد يأتي زمان تتقوى فيه، أو يجتمع المسلمون تحت رايتها.. أما إذا غابت الخلافة.. فالتجمع صعب.. وصعب جدًا..

مصيبة أن تختفي الخلافة.. مصيبة أن يختفي الخليفة.. كارثة.. مصيبة.. "الدنيا" بلا خليفة!!.. نسأل الله عز وجل أن يجمع المسلمين تحت خلافة واحدة على منهاج النبوة..

وظهر عند المسلمين بعد سقوط بغداد اعتقاد غريب سيطر على كثير منهم حتى ما عادوا يتكلمون إلا فيه، وانتشر بين الناس بسرعة.. لقد ظهر اعتقاد أن ظهور التتار وهزيمة المسلمين وسقوط بغداد ما هي إلا **علامات للساعة**، وأن

"**المهدي**" سيخرج قريبًا جدًا ليقود جيوش المسلمين للانتصار على التتار!!..

وأنا أقول نعم سيظهر "المهدي" في يوم ما، ونعم سينزل المسيح عليه السلام، ونعم ستكون الساعة.. كل هذه أمور نعلم أنها ستحدث.. يقينًا ستحدث.. ولكن متى؟ لا يدري أحد.. "**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**"- سورة الأحزاب, آية ٦٣.. فلماذا تظهر مثل هذه الدعوات في أوقات الهزائم والانتكاسات؟!..

إن هذا ليس له إلا مبرر واحد؛ وهو أن الناس قد أحبطوا تمامًا، فأصبحوا يشكون في إمكانية النصر على أعداء الله -عز وجل- بمفردهم.. أيقن الناس أنهم لا طاقة لهم بهولاكو وجنوده؛ ولذلك بحثوا عن حل آخر أسهل.. فليكن "**المهدي**".. فلننتظر إلى أن يخرج "المهدي"، وعندها نقاتل معه.. أما قبل ذلك فلا نستطيع.. دعنا نراقب الموقف عن بعد!!..

إحباط.. ويأس.. قنوط.. وهذه كلها ليست من صفات المؤمنين.. (**إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**)- سورة يوسف, آية ٨٧..

كان هذا هو الوضع الإسلامي بعد سقوط بغداد.. فكيف كان الوضع في العالم النصراني؟

لقد عمت البهجة والفرح أطراف العالم النصراني كله.. وهذا شيء متوقع جدًا.. فكما ذكرت في أول الموضوع أن قوى العالم الرئيسية في هذا القرن السابع الهجري كانت ثلاثًا: العالم الإسلامي والعالم النصراني والتتار.. والحروب بين المسلمين والنصارى كانت على أشدها، وهذه ضربة موجعة جدًا للعالم الإسلامي.. وتجددت الأطماع في مصر والشام..

وقد زاد من فرح النصارى أنهم كانوا يتعاونون مع التتار في هذه الحملة الأخيرة.. ودخل ملك أرمينية وملك الكرج وأمير أنطاكية في حزب التتار.. وزاد من فرحتهم أن التتار -وللمرة الأولى- في حياتهم صدقوا في عهودهم؛ فإنهم قد وعدوا النصارى ألا يمسوهم بسوء في بغداد، بل إن "هولاكو" أغدق بالهدايا على "**ماكيكا**" البطريرك النصراني، وأعطاه قصرًا من قصور الخلافة العباسية، وجعله من مستشاريه وأصحاب الرأي في بغداد..

كل هذا دعا النصارى إلى أن يقولوا: إن التتار هم أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح عليه السلام، وهم بالطبع يقصدون المسلمين، مع أن التتار كانوا منذ سنوات قليلة يقتلون النصارى أنفسهم في أوروبا.. ولكن ذاكرة النصارى لا تتسع للكثير.. لقد تناسوا ما فعله التتار معهم ما دام التتار يقتلون المسلمين، تمامًا كما يتناسى النصارى اليوم ما فعله اليهود معهم ما دام اليهود يقتلون المسلمين.. والتاريخ يعيد نفسه دائمًا..

وهذه الكلمات التي قالها النصارى عن التتار، وهذه الشماتة الواضحة في المسلمين، كانت هي نفس الكلمات ونفس الشماتة التي حدثت بعد سقوط غرناطة في الأندلس!! **وسبحان الله!!** فالذي يراجع سقوط غرناطة يجد تشابهًا عجيبًا بين سقوطها وسقوط بغداد.. مما يعطي أهمية قصوى لدراسة التاريخ، لأنه يتكرر بصورة قد لا يتخيلها البشر!!..

ما أشبه اليوم بالبارحة!!

فهذه قصة سقوط بغداد في أيدي التتار، وما زال للقصة بقية.. ما زال هناك اجتياح سوريا وجنوب تركيا ولبنان وفلسطين والاقتراب جدًا من مصر.. وما زالت هناك دماء ستسيل وأرواح ستزهق وظلام سيشتد.. لكن سيأتي بعد الظلام نور لا محالة.. سُنة من سنن الله (عز وجل).. سيجعل الله بعد عسرًا يسرًا.. ستكون هناك "**عين جالوت**".. وسيكون هناك الانتصار الخالد الذي سيقوم به **قطز** (رحمه الله) ومن معه من المجاهدين..

ولكن لابد لنا من وقفة..

فنحن لم نقص هذه القصة لمجرد التأريخ لما سبق من أحداث الأرض.. أو لمجرد التنظير والتحليل دون عمل أو وقفة.. نحن نقص القصة للعبرة وللتفكر والاستفادة.. نحن نقص القصة لقراءة المستقبل..

ما أشبه اليوم بالبارحة!!

ما أشبه سقوط بغداد تحت أقدام الأمريكان بسقوط بغداد تحت أقدام التتار! .. ما أشبه المسلمين أيام التتار بمسلمي اليوم.. وما أشبه حكام المسلمين أيام التتار بحكام المسلمين اليوم.. وما أشبه التتار بالأمريكان.. وما أشبه حلفاء التتار بحلفاء الأمريكان.. صورة متكررة في التاريخ بشكل عجيب..

لقد ظهر التتار فجأة على مسرح الأحداث تمامًا كما ظهر الأمريكان .. **أمة بلا تاريخ**.. قامت على السلب والنهب.. قتل الأمريكان عشرات بل مئات الألوف من الهنود الحمر لكي تقام له دولة.. نهبوا ثروات غيرهم وأقاموا ما يسمونه "بحضارتهم" على أشلاء وجماجم سكان البلاد الأصليين..

ومرت الأيام، وصاروا **"قطبًا أوحد"** في الأرض تمامًا كما صار التتار.. ولم يقبلوا بالآخر أبدًا.. ورسخوا الظلم والبطش والقهر في الأرض مع ادِّعائهم المستمر أنهم ما جاءوا إلا لنشر العدل والحرية والأمان للشعوب..

ما أشبه طاولة مفاوضات التتار بطاولة مفاوضات الأمريكان.. عهود ولا ضمير.. مواثيق ولا أمان.. كلمات جوفاء تطلق في الهواء لتسكين الشعوب إلى أَجَل.. ولخداع البشر إلى حين.. والعزم مُبيَّت على نقض العهود.. والنية معقودة على الطعن من الظهر..

لقد دخل الأمريكان بلاد المسلمين بحجج واهية تمامًا كما دخل التتار بحجج واهية.. ما احتاجوا إلى دليل دامغ أو إلى حُجَّة ساطعة.. بل هي أوهام في أوهام.. وادعاءات في ادعاءات.. فتارة هم يحاربون الإرهاب.. وتارة يرسخون الديموقراطية.. وتارة يحررون الشعوب.. وتارة يبحثون عن أسلحة الدمار الشامل!!..

ليس المهم أي سبب سيدخلون من ورائه، ولكنهم حتمًا سيدخلون..

وحارب الأمريكان في بلاد المسلمين حروبًا كحروب التتار.. حروب بلا قلب.. لا تفرق بين مدني ومحارب ولا بين رجل وامرأة.. ولا بين طفل أو شابٍّ أو شيخ كبير.. واستولى الأمريكان على ثروات المسلمين تمامًا كما فعل التتار.. وإلا فما الفارق بين البترول وبين الذهب والفضة؟ وما الفارق بين تغيير المناهج وتبديلها وتزييفها وبين إغراق مكتبة بغداد؟.. طمس لكل ما هو إسلامي.. وروح همجية لا تقبل الحضارة..

وسبحان الله كأن الله عز وجل أراد أن يطابق الأمريكانُ أفعالَ التتار؛ فجعل خطواتهم في إسقاط بغداد شديدة الشبه بخطوات التتار..

فكما تمركز الأمريكان –أولاً– في أفغانستان عن طريق الاحتلال وإسقاط نظام طالبان، تمركز التتار أيضًا في أفغانستان أولاً.. وكما سعى الأمريكان إلى إقامة قواعد لهم في أوزبكستان وباكستان.. فعل ذلك التتار قبل ذلك بقرون: **" أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ "**– سورة الذاريات, آية ٥٣.

وكما كان إعداد التتار العسكري مبهرًا وقويًا، كذلك كان إعداد الأمريكان.. فهم لم يبخلوا على حربهم بالمال ولا بالسلاح ولا بالفكر.. أساطيل مهولة ..وأسلحة حديثة.. واستعدادات وتدريبات وحصار وخُطة..

وكما عقد التتار أحلافهم عقد الأمريكان أحلافهم كذلك..

وإذا كان منكوخان –خاقان التتار– أيام سقوط بغداد يقسِّم العالم إلى دول **"مارقة"**؛ أي معادية ودول

"صديقة"؛ أي تابعة، فكذلك فعل **خاقان أمريكا "جورج بوش"**.. منطق السيد الذي يأمر في أحلافه لا الذي يعاهد ويفاوض..

وكما تحالف التتار مع الصليبيين على حرب المسلمين مع اختلاف أيديولوجياتهم وسياساتهم وتوجهاتهم واستراتيجياتهم، كذلك تحالف الأمريكان مع اليهود مع شدة العداء بين النصارى واليهود.. وتعاون الأمريكان مع الروس مع التاريخ الأسود الذي يجمع بين البلدين.. وجلس الأمريكان على طاولة المفاوضات مع الصين مع توجُّس كل طرف من الآخر..

وكما كوَّن التتار قوات التحالف وتحالفوا مع دول نصرانية ضعيفة كأرمينية والكرج، فعل ذلك الأمريكان وتحالفوا مع إنجلترا، واستفادوا منها كما استفاد التتار من أرمينية؛ فإنجلترا صاحبة خبرة في بلاد المسلمين ولها تاريخ طويل معهم، كما أنها ستتولى السيطرة على مناطق قد يكون بها خطورة شديدة على الأمريكان، فلا مانع من دفع الإنجليز إلى هذه المناطق في مقابل الفتات، وفي مقابل السماح لهم بالعيش إلى جوار الأمريكان..

وكما تعاهد التتار مع بعض أمراء المسلمين.. فعل الأمريكان نفس الشيء.. وتحالفوا مع بعض الأمراء المسلمين.. أو مع كثير من الأمراء المسلمين.. وكما تحالف بدر الدين لؤلؤ زعيم الأكراد في شمال العراق مع التتار، كذلك تحالف أكراد الشمال العراقي مع الأمريكان، وكما فتح كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع المجال الأرض التركي لقوات التتار فعل كذلك الأتراك الآن.. وكما اخترقت الجيوش التترية أراضي المسلمين دون مقاومة لتصل إلى العراق، كذلك اخترقت جيوش الأمريكان أراضي المسلمين الآن –ليس فقط بدون مقاومة– ولكن بترحيب عال، وباستقبال حافل..

حقًا ما أشبه اليوم بالبارحة!!

وكما فكر التتار في التعاون مع الشيعة في العراق فكر الأمريكان كذلك..

وكما استغل التتار بعض المنافقين من المسلمين لبث الحرب الإعلامية التي تحط من نفسيات المسلمين، وتلقي الرعب في قلوبهم، قام الأمريكان بنفس الشيء؛ حتى رأينا الصحف القومية في البلاد الإسلامية تتحدث عن تدريبات وتسليحات وإمكانيات الأمريكان، وتوسِّع الفجوة جدًا بين أمريكا والمسلمين، وتحبط المسلمين من أي إمكانية للمقاومة..

وكما عمد هولاكو إلى توصية مؤيد الدين العلقمي الشيعي أن يحاول إنقاص أعداد الجيوش الإسلامية كذلك فعل الأمريكان مع كثير من بلاد المسلمين فوضعوا عليها قيودًا في التسليح، وفي أعداد الجنود وفي التدريبات..

وكما حوصرت بغداد من التتار حوصرت من الأمريكان، وكما قصفت بغداد من التتار قصفت من الأمريكان، وكما انهارت أسوار بغداد تحت قذائف التتار انهارت أسوار بغداد تحت قذائف الأمريكان..

وكما طلب التتار تسليم المجاهدين، فعل كذلك الأمريكان.. وكما طلب التتار تدمير الأسلحة فعل كذلك الأمريكان.. وكما هرب المستعصم بالله من الموقف ورضي بالهوان كذلك فعل صدام حسين.. وكما قتل وُلدا المستعصم قبل أن يُقبض عليه قُتل ولدا صدام قبل أن يقبض عليه!..

وكما خالف التتار عهودهم بالأمان قبل دخول بغداد، كذلك خالف الأمريكان.. وكما دخل التتار البلاد لكي لا يخرجوا منها.. دخل كذلك الأمريكان العراق لكي لا يخرجوا منها..

صورة بالكربون من التاريخ!!!..

لكن كل هذا الشبه بين التتار والأمريكان لا يخيفني ولا يرهبني؛ فملة الكفر واحدة، وحال الكفار يتشابه في كل الأزمان؛ **إنما ما يخيفني ويرهبني حقًا هو تشابه واقع**

المسلمين اليوم مع واقعهم أيام التتار.. فنحن لا نُهزم أبدًا لقوة الكفار سواء كانوا من التتار أو الفرس أو الروم أو الروس أو الأمريكان أو غيرهم.. إنما نهزم لضعفنا نحن.

لقد افتقر المسلمون أيام التتار لكل مقومات النصر فكان لابد من الهزيمة والذل والهوان، وكذلك افتقر المسلمون في زماننا إلى نفس مقومات النصر فكانت النتيجة هي العربدة الأمريكية والروسية والهندوسية واليهودية والصربية في أراضي المسلمين..

الأمراض الأخلاقية التي تفشت في الأمة الإسلامية وكانت سببًا في هذا الانهيار أيام التتار هي نفس الأمراض الأخلاقية التي تفشت في أمتنا اليوم.. لابد أن يقف المسلمون وقفة صادقة مع أنفسهم، يفتشون عن أدوائهم الخطيرة.. لماذا يفعل أهل الأرض بنا ما يشاءون ونحن نزيد على المليار؟.. لماذا لا يأبه بنا أهل الشرق أو أهل الغرب؟ لماذا نزع الله (عز وجلّ) المهابة منا من قلوب أعدائنا، ولماذا ألقى في قلوبنا الوهن والضعف والخور؟

فلنراجع التاريخ يا إخواني ولنراجع الواقع.. ما هي أمراضنا؟ بإيجاز شديد أمراضنا هي:

المرض الأول– عدم وضوح الهوية الإسلامية:

والقاعدة الإسلامية الأصيلة هي:"**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**"– سورة محمَّد, آية ٧.. ونصر الله (عز وجل) يكون بتطبيق شرعه، والالتفاف حول راية إسلامية واحدة.. لا عنصرية.. ولا قبلية.. ولا قومية..

أما البعد عن منهج الله عز وجل، وقبول الحلول الشرقية والغربية، والإعراض عن كتاب الله عز وجل وعن سنة رسوله ρ فهذا أصل البلاء وموطن الداء..ولم يغير المسلمون من واقع التتار إلا عندما ظهر من ينادي بالنداء الجميل: "**وا إسلاماه**".. لقد وفق الله (عز وجل) **قطزًا** –رحمه الله– إلى هذه الكلمة ليعبِّر بها عن كل حياته، ولم يقل مثلاً وامِصراه أو وامُلكاه أو واعروبتاه..

المرض الثاني– الفرقة بين المسلمين:

فكما كان التصارع يتم بين كل الأقاليم الإسلامية أيام التتار، وكما كان يعيث جلال الدين فسادًا في بلاد المسلمين، وجيوش التتار قابعة على بُعد خطوات، كذلك نرى الخلاف والشقاق يدب بين كل بلاد المسلمين الآن تقريبًا.. قلما تجد قطرين إسلاميين متجاورين إلا ووجدت بينهما صراعًا على حدود أو اختلافًا على قضية.. وانشغل المسلمون بأنفسهم، وتركوا الجيوش المحتلة تعربد في ربوع العالم الإسلامي، وجعلوا همهم في التراشق بالألفاظ وأحيانًا بالحجارة والسلاح مع إخوانهم المسلمين.. ولا شك أن التنازع بين المسلمين قرين الفشل.. يقول تعالى:(**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**)– سورة الأنفال, آية ٤٦.

المرض الثالث– الترف والركون إلى الدنيا:

لقد كبرت الدنيا جدًا في عين المسلمين أيام التتار.. وكذلك في أيامنا.. أجيال كاملة لا تعيش إلا لدنياها، وإن كانت الدنيا حقيرة ذليلة.. فعاش كل فرد ليجمع المال ويجمِّل ويحسن في معيشته.. ولينعم بأنواع الطعام والشراب والدواب والمساكن.. وليستمتع بأنواع الغناء المختلفة وبأساليب الموسيقى المتجددة.. وهكذا غرق المسلمون في دنياهم.. والترف من أسباب الهلكة الواضحة.. يقول الله –تعالى– في كتابه: "**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**"– سورة الإسراء, آية ١٦ ..

وقد وصل الترف اليوم إلى عموم المسلمين حتى وصل إلى فقرائهم!!.. فالرجل قد لا يجد قوت يومه ثم هو لا يستغني عن السيجارة!!.. ويكاد لا يجد ما يستر به نفسه،

وأولاده ثم هو يجلس بالساعات على المقاهي والكافيتريات، وقد لا يستطيع أن يعلِّم أولاده، ولكنه حريص كل الحرص على اقتناء فيديو أو طبق فضائي!!.. ركون إلى الدنيا وانغماس في شهواتها.. ولا يستقيم لأمة تريد القيام أن تكون بهذه الهيئة..

المرض الرابع– ترك الجهاد:

وكنتيجة طبيعية للانغماس في الدنيا، والترف الزائد عن الحد ترك المسلمون الجهاد.. ورضوا بالسير في ذيل الأمم.. وقبِلَ المسلمون ما سماه عدوهم "**السلام**"، بينما هو بوضوح "**استسلام**".. لم يفقه المسلمون أيام التتار –كما لم يفقه كثير من المسلمين في زماننا الآن– أن السبيل الأساسي لاستعادة حقوق المسلمين المنهوبة هو **الجهاد**، وأنه –وإن كان السلام يصلح أن يكون اختيارًا في بعض الظروف– إلا أن السلام لا يمكن أن يكون الخيار المطروح إذا انتُهبت حقوق المسلمين، وإذا سُفكت دماؤهم، وإذا شُرِّدوا في الأرض، وإذا استُهزئ بدينهم وبرأيهم وبمكانتهم..

لم يفقه المسلمون أن السلام لا يكون إلا باستعادة كامل الحقوق، ولا يكون إلا ونحن أعزاء، ولا يكون إلا ونحن نمتلك قوة الردع الكافية للرد على العدو إذا خالف معاهدة السلام، أما بدون ذلك فالسلام لا يكون سلامًا بل يكون استسلامًا؛ وهو ما لا يُقبل في الشرع..

المرض الخامس– إهمال الإعداد المادي للحروب:

لقد اجتهد التتار في إعداد كل ما يمكنهم من النصر؛ سواء كان جنودًا أو سلاحًا أو تجهيزًا للطرق أو وضعًا للخطة أو الاهتمام بالأحلاف والحرب النفسية والخطط البديلة.. لقد كان إعدادًا متميزًا حقًا.. وعلى الجانب الآخر كان المسلمون يعيشون في واد آخر!!..

أُهملت الجيوش الإسلامية وانحدر مستواها، ولم يهتم حاكم بتحديث سلاحه أو تدريب جُنده، ولم تُوضع الخطة المناسبة، ولم تُوجد المخابرات الدقيقة.. لقد تهاون المسلمون جدًا في إعدادهم، ورُتبت أولوياتهم بصورة مخزية.. وبينما كانت تُنفق الملايين على القصور وعلى الرخام وعلى الحدائق لم ينفق شيء على الإعداد العسكري والعلمي والاقتصادي للبلاد.. وبينما قلَّ ظهور النماذج المتفوقة في المجالات العلمية والقيادية والإدارية كثر ظهور المطربين والمطربات، والراقصين والراقصات، واللاعبين واللاعبات، واللاهين واللاهيات!!

وأمة إعدادها بهذه الصورة لابد أن تهزم.. فأمة الإسلام بغير إعداد لا تقوم.. وليس معنى أن يرتبط الناس بربهم ويعتمدوا عليه أن يهملوا القوة المادية، والتجهيز البشري.. ولابد أن يفقه المسلمون هذا الدرس جيدًا.

المرض السادس– افتقار المسلمين إلى القدوة:

تربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات.. الجنود يشعرون بالغُربة الشديدة وبفقدان الحماسة تماماً إذا افتقدوا القدوة.. ألف خطاب للتحميس على الجهاد لا تفعل شيئا إذا وجد الجنود قائدهم أول المختبئين عند الكوارث!!.. ألف خطاب عن تحمل الظروف الصعبة والرضا بالقليل والزهد في الدنيا وتحمُّل المصائب الاقتصادية لا يغني شيئًا إن وجد الشعب زعيمه يتنعم في القصور وينفق الملايين على راحته وسعادته ورفاهيته وحفلاته الصاخبة.. ألف خطاب عن الأخلاق الحميدة لا يقدم شيئًا في الأمة إن كان الذي يقتدى به لا يصلي ولا يصوم ولا يتسم بنظافة اليد واللسان، وبطهارة الضمير والوجدان..

كيف يلتزم الشعب بدينه وشرع ربه، وقلما استمع إلى لفظ الجلالة: "الله" من زعيمه أو أستاذه أو مربيه؟! كيف

للشباب أن ينصلح حالهم، وهم يرون أن القدوات التي تبرز لهم هي قدوات منحلة بعيدة كل البعد عن طريق الصلاح؟!

القائد الذي لا يكون قدوة حية لشعبه في الجهاد والخُلُق والصبر والزهد والعدل؛ لا يجب أن يتوقع من شعبه أن يحميه وقت الشدائد، ولا يقف معه في زمان المصائب.. وفي التاريخ عبرة !!

المرض السابع– موالاة أعداء الأمة:

لقد سقط الكثير من زعماء المسلمين أيام التتار في مستنقع الموالاة لأعداء الأمة، وكان منطقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساسًا، ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك ويلات الحروب.. فارتكبوا خطئًا شرعيًا وعقليًا شنيعًا.. بل ارتكبوا أخطاءً مركبة.. فتجنُّب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، وموالاة العدو واعتباره صديقًا والثقة في كلامه وفي عهوده خطأ ثالث..

وربنا (سبحانه وتعالى) يقول في كتابه بوضوح: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى** أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"- سورة المائدة, آية ٥١.. وهذا تحذير خطير من رب العالمين.. وكم هو أحمق –أو ضعيف الإيمان– من يستمع إلى هذا التحذير ثم لا يلتفت إليه..

المرض الثامن– الإحباط:

الأمة المحبَطة من المستحيل أن تنتصر، والإحباط والقنوط واليأس ليست من صفات المؤمنين وكما قال تعالى: (إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)- سورة يوسف, آية ٨٧ .

لقد عمل التتار –كما عمل الأمريكان وكما عمل أتباع التتار والأمريكان– على خفض الروح المعنوية للشعوب المسلمة إلى أدنى درجة ممكنة.. لقد عظَّموا كل ما هو تتريٌّ أو أمريكي وخفضوا كل ما هو مسلم.. ووسَّعوا البلد أناس افتقروا إلى الكفاءة وافتقروا إلى التقوى.. فلا قوة ولا أمانة.. وهذه –والله– الطامَّة الكبرى!!.. إذا لم يصل إلى مراكز القيادة إلا أصحاب الوساطة أو القرابة أو الرشوة؛ فهذا أمر خطير.. بل شديد الخطورة.. إذا رأيتم أن القريب يوظِّف قريبه، وأن المراكز تُباع وتُشترى وتُهدَى، وأن أصحاب الكفاءات لا تُقدَّر كفاءتهم، ولا يُرفع من قدرهم، فاعلم أن النصر مستحيل..

إذا كنا نجد أننا الآن في ذيل الأمم كما كان الوضع أيام التتار، فلننظر إلى مراكز القيادة ومن جلس فيها.. ولننظر كيف وصلوا إلى هذه المراكز.. فإنك –ولا شك– ستجد الغالب الأعم قد وصل إليها بأسلوب لا يرضى عنه الله عز وجل..

ولا سبيل للنصر إلا بتوسيد الأمر إلى أهله، وجعل الأمور في يد الذي جمع بين عُمق العلم وصلاح العمل ونقاء الضمير وحسن السيرة..

الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام، والذي لا يأخذ بها يضحي بملايين الطاقات في شعبه ويفترض في نفسه الكمال، ويخالف طريق الأنبياء، ويورث الضغينة في

قلوب أتباعه، ويقع في الخطأ تلو الخطأ، وفوق ذلك كله يخالف أمر الله (عز وجل) الذي جاء بلفظ صريح في كتابه العزيز: **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)**- سورة آل عمران, آية ١٥٩..

وما نقصده هنا هو الشورى الحقيقة لا الشورى الوهمية التي ليس لها من هم إلى جمع الآراء المؤيدة لرأي الزعيم.. وليست الشورى التي تغلف آراء الديكتاتور في ورق سوليفان جميل اسمه الديمقراطية.. غلاف ليس له قيمة لا يلبث أن يُرمى في سلة المهملات ويبقى رأي الديكتاتور!!

كان هذا هو المرض العاشر من الأمراض التي أدت إلى انهيار المسلمين تحت أقدام التتار؛ **فتلك عشرة كاملة**، وهي نفس أسباب الهزيمة والهوان في أي عصر من العصور..وتذكروا أننا لا نهزم لقوة أعدائنا، ولكن لضعفنا وسوء إعدادنا..

وكيف يكون النصر؟

أمر بسيط للغاية.. لا لبس فيه ولا غموض!!.. النصر هو أن تعالج هذه الأمراض العشرة التي ذكرناها؛ أن تعالجها علاجًا حقيقيًا صادقًا.. لابد أن نعترف بوجود هذه الأدواء ونسعى جاهدين صادقين لعلاجها، وللرقي بهذه..الأمة، وتوظيف كل الطاقات لتمكين هذه الأمة الإسلامية في الأرض **النصر ببساطة يكون في هذه الأمور العشرة (وهي علاج الأمراض السابقة):**

المرض العاشر: غياب الشورى:

١- العودة الكاملة غير المشروطة لله (عز وجل) ولشرعه الحكيم.

٢- الوحدة بين المسلمين جميعًا على أساس الدين.

٣- الإيمان بالجنة والزهد في الدنيا والبعد عن الترف.

٤- تعظيم الجهاد والحث عليه وتربية النشء والشباب على حب الموت في سبيل الله.

٥- الاهتمام بالإعداد المادي من سلاح وعلم وخطط واقتصاد وتقنيات وسياسات.

٦- إظهار القدوات الجليلة وإبراز الرموز الإسلامية الأصيلة وتعظيمها عند المسلمين.

٧- عدم موالاة أعداء الأمة، والفقه الحقيقي للفرق بين العدو والصديق.

٨- بث روح الأمل في الأمة الإسلامية ورفع الهمة والروح المعنوية.

٩- توسيد الأمر لأهله.. وأهله هم أصحاب الكفاءة والأمانة.

١٠- الشورى الحقيقية التي تهدف فعلاً إلى الخروج بأفضل الآراء.

ومع كل التطابقات السابقة بين السقوطين القديم والحديث؛ إلا أن هناك فارقًا مهمًا جدًا بين القصتين، وهذا الفارق يبعث الأمل الكبير في النفوس، وينفي عنها الإحباط المقيت.. وهذا الفارق هو ببساطة: **المقاومة!!**.. لقد شاهدنا مقاومة من الشعب العراقي بعد انهيار الجيش وبالذات في المثلث السني، وشاهدنا ضحايا من المغتصب الأمريكي، وشاهدنا فشلاً أمريكيًا في اختراق صفوف المقاومة، وشاهدنا

تعاطفًا من العالم الإسلامي مع المجاهدين العراقيين، وشاهدنا قلقًا أمريكيًا واضحًا؛ سواء في القيادة أو في المعارضة أو في الشعب أو في الجنود، حتى وصل إلى الانتحار في صفوف المقاتلين الأمريكان!!

كل هذه المشاهدات لم نرَها في القصة القديمة؛ مما يعطي انطباعًا أن وضعنا الآن أفضل، وأن حالتنا لم تصل إلى الحالة المتردية التي كانت عليها الأمة أيام التتار، وكل هذا يبعث الأمل في النفوس، ويقوي العزيمة على القيام من جديد، ونصر الله لهذه الأمة آتٍ لا محالة مهما طال الزمان، ومهما تعقدت الظروف، وإذا كانت الأمة قد استطاعت الخروج من أزمتها الطاحنة أيام التتار، فنحن -إن شاء الله- على الخروج من أزمتنا أقدر، والله الذي أخرج **قطز** من بين صفوف المؤمنين قادر على إخراج أمثاله من بين صفوفنا، "**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**"- سورة ص, آية ٨٨ !..

وكلمة أخيرة..

انتهت قصة التتار وانتهت قصة عين جالوت.. ومات الصالحون.. ومات الطالحون.. مات الجند الظالمون، ومات الجند المؤمنون.. ومرت الأعوام والأعوام والقرون والقرون.. ذهبت الديار والرجال والقلاع والحصون.. ذهبت الأفراح والأتراح والضحكات والدموع.. ذهب كل شيء.. ولم تبق إلا العبرة.. **(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ)**- سورة يوسف, آية١١١.

الذي بقى -يا إخواني- هو كلام رسول الله ρ الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضى الله عنه): "**تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه إلا الجهادُ في سبيله وتصديقُ كلماته بأن يدخلَه الجنة، أو يَرجعَه إلى مَسْكَنِه الذي خرج منه مع ما نال من أجرٍ أو غنيمة**".. الذي بقى -يا إخواني- هو السُّنة الإلهية التي لا تتبدل ولا تتغير.. "**إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**" سورة آل عمران, آية ١٦٠..

ونسأل الله أن يجعل حياتنا كلَها في سبيله.. وأن يجعل كلامنا وواقعنا ككلام أصحاب رسول الله ρ وكواقعهم عندما أجابوا الرسول ρ وقالوا: **نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا**.. وأسأل الله أن يجعل لنا في التاريخ عبرة!! "**فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**"- سورة غافر, آية ٤٤..

مراجع البحث

- القرآن الكريم وتفاسيره.
- كتب الحديث النبوي الشريف وشروحها.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري.
- البداية والنهاية لابن كثير.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي.
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام للدكتور محمد سهيل طقوش.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام للدكتور محمد سهيل طقوش.
- السلطان المظفر سيف الدين قطز للدكتور قاسم عبده قاسم.
- المظفر قطز ومعركة عين جالوت لبسام العسلي.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي.
- التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر.
- أطلس التاريخ العربي الإسلامي للدكتور شوقي أبو خليل.
- أطلس دول العالم الإسلامي للدكتور شوقي أبو خليل.
- أطلس الوطن العربي والعالم: دار الشرق العربي.
- تاريخ ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون.
- من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي.
- مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام للدكتور محمد عبد الله عنان.